

# دعوة المسيحي

تأليف

القانوني جاك ليكلير

نقله عن الفرنسية

الأب ج. عقيقي اليسوعي

## تمهيد

تاريخ الشعب اليهودي مليء بالمتناقضات.

فالعهد القديم تاريخ عظيم جاف، تشترك فيه الفجيعة بالأنس، ومأساة الدم والخيانة بأغاني الحب، وجلال الرؤى الباهرة بدسائس الحريم.

فهموه يهيمن فيه على كل شيء. يختار شعبه اختياراً حراً، لا يؤدي عن اختياره حساباً؛ ويقوده بعنف ولين، فتسمو، في هذا الشعب الوجوه الخشنة الجلييلة، وجوه الآباء والأنبياء الذين يلبون دعوة الله، على إسراف الدم والقبائح.

شعب خشن، يعيش في عصور قاسية، بين شعوب ليست دونه غدراً وقسوة وفجوراً، وعندما يقوده يهوه ليدلّه على ما يجب أن يصير إليه، لا يرفق به. فهذا موسى، منقذ أحكام يهوه، وهو وجه جليل، لا يحيد عن طريق الرب، لن يدخل أرض الميعاد، لأنه شكّ مرة، فهموه لا يستاهل مع المختارين.

عهد رهيب. ولما اختار يهوه شعبه كان هذا الشعب كغيره من الشعوب سريع الشهوة، عطشاً إلى الملاذ، يهظهه جلال الله، ويقوده كما يلزم أن يقاد مثله. فلما نزل إلى الجليل لكي يخاطب موسى، قصف الرعد، ولمع البرق، وسمع الشعب صوت بوق عظيم. فلم يستطع أحد غير موسى أن يتقدم ويدنو من الجبل. وقال الرب: "اجعل حدّاً للشعب من حوالي الجبل، وقل لهم احذروا من أن تصعدوا الجبل أو تمسّوا طرفه. فإن كل من مسّ الجبل يقتل قتلاً، لا تسمه يد بل يرحم رجماً، أو يرمى بالسهم، بهيمة كان أو إنساناً لا يبقى عليه. وكان الشعب كله يسمع الرعد وصوت البوق، ويرى النار والجبل مدخناً، وهو يرتعد" (خروج 19: 12).

هذا جوّ الوحي الذي نزل في سيناء: "قد امتلأ سيف الرب دمّاً وسمّ من الشحم، من دم الحملان والتيوس من شحم كلى الكباش" (أشعيا 6: 34).

لكن يهوه يحب شعبه: "فأي شيء يصنع للكرم ولم أصنعه لكرمي" (أشعيا 5: 4) سيأتي النور والسلام. "فالشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً، والجالسون في بقعة الموت وظلاله أشرق عليهم نور، كثرت الأمم، وقرت لها الفرخ، يفرحون أمامك كالفرح في الحصاد، كابتهاج الذين يتقاسمون السلب" (أشعيا 6: 2-3).

واله العهد القديم إله عدل، إله غيور، لا يغضى على الكفر. هو سيد يفرض أحكامه فرضاً على شعب شهواني.

بهذا بدأ، قبل أن يسمعه نغم الحب. فإسرائيل يرتعد أمامه خوفاً، ولا يشكو منه ظلاماً، لأن العظمة الإلهية تتعالى فوقه تعالي الجبال على السهل؛ فهو يؤدبه صابراً عليه، ليحوّله عن طلب الدنيويات. هو الرب لا تخفى عليه خافية: "السّموات تنطق بمجد الله، والجلد يخبر بعمل يديه. اليوم يخبر اليوم بحمده والليل يعلم الليل".

فالإنسان في قبضته. إن عصا شقي، وإن أطاعه سعد. وهذه صور المختارين العظام، على مدى التاريخ المقدس، تنطق بإخلاص من يلبي دعوته من النفوس الرفيعة: صموئيل نذير العلى، وقد ظل منذ طفولته، نحو جيل، أداة المشيئة الإلهية. وإيليا وأليشع، رجلاً الله، تمثلت فيهما صور القداسة جميعها؛ وسلالة الأنبياء منذري الشعب بالقصاص ومبشره بالخلاص، وصور الأبرار: أيوب وطوبيا، وأليعازر الشيخ، وأم المكابيين... والوعد بالمخلص الآتي وعصره السعيد.

ولكن هذا الشعب قليل والتأمل والتبحر، مع أن تاريخه هو تاريخ حضور الله عاملاً فيه وملاحقاً له. وما تكشفت العظمة الإلهية لمثله، ولا تحققت معرفة الإله الواحد في شعب كما تحققت في إسرائيل. فهو يحفظ الأمانة، ولكنه يستصعب استساغتها؛ ويظل غريباً عما يستولي على حكماء الشرق من الشوق إلى رؤية الله، وعما سيملاً نساك المسيحية من الوجد الإلهي. أما هو فإنه يخاف من الله، يراه سيداً مخيفاً، فلا تجرّته رأفته به على أن يرفع بصره إليه؛ وقد بلغ به الخوف ألا يجسر أن يلفظ اسمه. فهذا أشعيا يصرخ: "ويل لي! لقد هلكت، لأنني إنسان دنس الشفتين، وقد أبصرت عيني الملك، يهوه رب الجنود".

ويظل يهوه يعامل شعبه كما يجب أن يعامل. فقد بشر الأنبياء بأن إسرائيل ينعم بمائدة وافرة، إذا ظل أميناً: "وفي ذلك اليوم، يربي واحد عجلة من البقر وشاتين. ولكثرة اللبن لا يأكل إلا الزبد" (أشعيا 7: 21-22).

فكل شيء في هذا التاريخ تناقض، حتى نشيد المحبة يرافقه الأمل بخيرات الأرض: "باركي يا نفسي الرب. أيها الرب إلهي، لقد عظمت جداً، جلالاً وبهاء لبست، أنت الملتحف بالنور

كرداء... الذي ينظر إلى الأرض فترتعد. يمسُّ الجبال فتصير دخاناً. أرزم للرب مدة حياتي،  
أشيد لله ما دمت، ليلذ له نشيدي. أنا أفرح بالرب، ليفنَّ من الأرض الخطأ، ولا يبقى فيها  
المنافقون" (المز 103).

فالتمهيد لرسالة المسيح هو انتظار طويل تخالطه اختلاجات من الإيمان ومن الفطرة. وفي  
نهاية كل هذا، يولد طفل: فيكون نوراً لإسرائيل، نوراً لامعاً في الظلام "والظلمة لم تقبله".  
"وقد سكن فيما بيننا ممتلئاً نعمة وحقاً. وشاهدنا مجده، مجداً من الأب لابنه الواحد..."  
فما عسى أن يكون تعليم هذا المخلص المنتظر؟

## الفصل الأول

### الملكوت

#### يسوع يبشر بالملكوت

"وبعد ما ألقى يوحنا في السجن، أتى يسوع إلى الجليل وهو يكرز بإنجيل الله ويقول: لقد تم الزمان، واقترب ملكوت الله؛ فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مرقس 1: 14-15).

ما الملكوت؟

الملكوت، في التعليم المسيحي الحاضر، لا يشغل محلاً كبيراً، أما يسوع فيتكلم عنه دائماً، وهو يقول:

"يشبه ملكوت السموات كنزاً مخفي في حقل؛ وجده إنسان فخبأه. ومن فرحه به مضى وباع كل شيء له واشترى ذلك الحقل. ثم يشبه ملكوت السموات إنساناً تاجراً يطلب لآلئ حسنة. فلما وجد لؤلؤة نفيسة مضى وباع كل ما كان له واشتراها" (متى 23: 44-46).

فملكوت السموات أثنى ما في العالم؛ وهو حقيق أن يضحى في سبيله بكل شيء. غير أن يسوع لم يهتم بتحديدده. وأي فائدة في ذلك؟ وما يشترط لدخوله؟ وعلامة نأسف، وبم نؤمن؟ إن مطالعة الإنجيل تترك في النفس شعوراً يصعب تحديده، لأن تعليم يسوع أبعد من أن يكون درس ديانة، وهو قلما يهتم للإجابة عما نحسبه من المسائل الجوهرية. على حين نشعر أن هذه الكتب الصغيرة تحتوي على كل شيء. وإن كان هذا الكل غير ما ننتظر.

يبشر يسوع بالملكوت، ولكن يبدو لنا ما يقوله عنه غامضاً! فالملكوت كزارع خرج ليزرع، فأتى بعض زرعه بغلة وافرة، وبعضه لم يأت بشيء؛ والملكوت كإنسان زرع زرعاً جيداً في حله، فجاء عدوه ليلاً وبذر في الحقل نفسه زؤاناً. والملكوت كحبة خردل وهي أصغر البذور، نمت وكبرت حتى تفيأت في ظلها الطير، وهو كشبكة أقيت في البحر فجمعت من كل جنس من السمك... كل هذا لا يقول لنا بماذا يجب أن نؤمن، ولا ماذا يجب أن نصنع. والدين كله عندنا هو هذا. فهل يكون عند يسوع شيئاً آخر؟

يسوع يتكلم بأمثال، لأننا، كما قال، لا نستطيع أن نفهم. فهو يريد أن يعدنا لقبول رسالته. فعليه أن يوقظ أفهامنا ويخرجنا من رقاد الأوهام القديمة، والاهتمامات الأرضية "إن مملكتي

ليست من هذا العالم". فلم يفهم بيلاطس، ولا أحد فهم ولا نحن أنفسنا نفهم. فالإنجيل يحيرنا كما حير الآخرين، لأنه غير ما نتوقع.

ولما ألح بيلاطس وقال: "أنت إذن ملك؟" قال يسوع: "صدقت، أنا ملك"، وفسر معنى مملكته "ولدت وجئت إلى هذا العالم لأشهد للحق، ومن كان من الحق يسمع صوتي".

ولكن ما معنى الحق عند بيلاطس. فقال: "ما الحق؟" أي معنى لهذا عند رجل سياسة يطلب مركزاً أعلى، وعند رجل مال يطلب ربحاً أكثر؟ ما الحق؟

أي ملك يقوم ملكه بأن يشهد للحق؟

\*\*\*

كان يوحنا المعمدان قد بشر بالمسيح وقال: "يأتي بعدي من هو أقوى مني. أنا لست أهلاً أن أحلّ سير حذائه"... ثم يسجن يوحنا وتبلغ إليه بشارة يسوع، فيبعث إليه من يسأله: هل أنت الآتي أن ننتظر آخر؟ فقال يسوع للرسول: "امضوا فقولوا ليوحنا ما رأيتم وسمعتم: العميان يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون، والصم يسمعون، والموتى يقومون، والمساكين يبشرون. وطوبى لمن لا يشك في".

فأي نصيب في هذا جميعه للأصحاء وللأغنياء؟ وأنا الغني الطامع بالمزيد من المال، أي شيء لي في هذه المملكة؟ والهيئة الاجتماعية؟ والشيعوية؟ والرأسمالية؟ وما شأن المسيحية وهذا كله؟

لا شك أن الشيعوية لم تكن في عهد المسيح، ولكن مسائل غيرها سياسية واجتماعية كانت منتشرة. كانت هناك علاقات اليهود بالرومان، وكان هناك مثل ذلك الرجل الذي يأبى أخوه أن يعطيه نصيبه من ميراث أبيه، فيقول ليسوع: "يا معلم، قل لأخي يقاسمني الميراث". فيقول له يسوع: "يا هذا، من أقامني عليكم قاضياً ومقسماً".

ثم يلتفت إلى الشعب ويقول: "احذروا وتحفظوا من كل طمع لأن الإنسان وإن كان في سعة، فحياته لا تقوم على ما ملكت يده".

وهنا صفحة لا بد من مطالعتها لفهم الملكوت:

فقد ضرب لهم يسوع مثلاً: "إن إنساناً غنياً أغلّت له أرضه غلة وافرة. فجعل يفكر في نفسه، ماذا أصنع؟ أنه ليس لي موضع أخزن فيه غلالي. ثم قال: أصنع هذا، أهدم أهراي وأبني أكبر منها، وأخزن ثمة جميع غلالي وخيراتي، ثم أقول لنفسي، يا نفسي، إن لك ههنا خيرات وافرة مدخرة لسنين كثيرة، فاستريحي وكلي واشربي وتنعي! فقال له الله: يا جاهل، في هذه الليلة تطلب منك نفسك؛ وهذا الذي أعدته لمن يكون! كذلك يكون أمر الذي يدّخر لنفسه ولا يغي في سبيل الله".

ثم يوجه يسوع كلامه إلى تلاميذه: "من أجل هذا أقول لكم، لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون، ولا لأجسادكم بما تلبسون؛ تأملوا في الغربان فإنها لا تزرع ولا تحصد، وليس لها مخزن ولا هري؛ والله يقوتها فلکم أنتم أفضل من الطيور!

"من منكم يستطيع، مع الجهد، أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة؟ فإن كنتم لا تقدرّون على ما هو أيسر، فلم تهتمون للباقي؟ تأملوا في الزنابق كيف تنمو، إنها لا تشتغل ولا تغزل؛ وأنا أقول لكم، إن سليمان نفسه في كل مجده لم يلبس كواحدة منها. فإذا كان العشب الذي يوجد اليوم في الحقل ويطرح غداً في التنور يلبسه الله هكذا فمن بالأحرى أنتم، يا قليلي الإيمان! فلا تطلبوا أنتم أيضاً ما تأكلون وما تشربون ولا تقلقوا، فإن جميع هذه الأشياء تطلبها أمم العالم؛ وأبوكم يعلم أنكم في حاجة إليها. فاطلبوا بالحري ملكوته، وهذه كلها تزداد لكم" (لو 12: 13-31).

هي أمم العالم تهتم لهذه الأمور. ولأي شيء سواها نهتم نحن؟ افتحوا جريدة مسيحية تعبر عن أفكار المسيحيين، فهل تتكلم عن غير هذه الأمور التي يهتم لها الشعوب؟ فالملكوت ليس هنا. فأين هو؟

\*\*\*

أيقظت بشرى الملكوت، عند اليهود، أفكاراً مألوفة. فسأل الفريسيون يسوع: متى يأتي ملكوت الله؟ فقال: "إن ملكوت الله لا يجيء بوجه منظور، ولن يقال، هو هنا أو هناك! فما إن ملكوت الله في داخلكم" (لوقا 17: 20-21) في داخلكم؛ ويقول البعض: فيما بينكم، وغيرهم: في داخلكم. والمعنيان لا شك سواء. فالملكوت هو هنا في داخلنا، وفيما بيننا. "والعالم لم يعرفه"

وما تزال ممالك العالم كما هي. والعالم يعرفها، ويستطيع أن يشير إليها ويحدد مكانها وتاريخها: مملكة فرعون، وكسرى، والإسكندر، وقيصر، وشرلمان، ومعاوية بن أبي سفيان – أما مملكة الله فهي في موضع آخر.

كانت المملكة الرومانية، أيام المسيح في أوج عظمتها، وكانت لها مشاكل اجتماعية، مشاكل الأقاليم، ومشاكل العبيد. ولكن يسوع كان يتجاهل ذلك جميعاً ولا يتكلم إلا عن الملكوت، ولا يفكر في غير الملكوت، على أن الملكوت لا علاقة له البتة بممالك الأرض.

من السهل ألا يهتم الإنسان بشيء متى كان نبياً، وله مريدون يضحون في سبيله بالروح والجسد. أما نحن فإن لم نهتم بشأننا فمن يهتم بنا؟

فكل منا هو ذلك الإنسان الذي يريد أن يقاسمه أخوه ميراث أبيه. فنحن اليوم نتوجه إلى كنيسة المسيح كما توجه إلى المسيح ذلك الإنسان. فإذا نشبت الحرب هرع الجميع إلى الكنيسة وأخذ كل فريق يطلب أن تنصره وتقول إنه على صواب.

وإذا اختلف العمال وصاحب العمل طلبوا من الكنيسة أن تتدخل بينهم: "يا هذا، من أقامي عليكم قاضياً ومقسماً؟".

### بشارة الملكوت هي قبل كل شيء يسوع

وهذا ما يحير مطالع الإنجيل، وهو يريد أن يجد فيه تفصيلاً لما ينبغي أن يؤمن به ويعلمه. فالإنجيل يرسم صورة المعلم ويصفه ويعرضه في عمله. ووحى يسوع هو إعلانه نفسه وإعلامنا أنه هو ومن هو: "هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي أرسله" (لو 6: 29).

يسوع لا يتبع في تعليمه طريقة منظمة، ولا يحدد شيئاً، بل يظهر مسلطاً على الأشياء جميعها؛ فيشفي المرضى، ويسكن العاصفة ويكثر الخبز، ويتكلم بسلطان يخزي العلماء. وإذا دعا تلاميذه فهو لا يعدهم بشيء إلا أنه يشاركتهم.

يقول لبطرس وأندراوس، وهما صيادان: "اتبعاني فأجعلكما صيادي بشر". ويمرّ بلاوي في مكتبته ويقول له: "اتبعني" ولاوي يتبعه.

فاتباعه فوق كل شيء. لكن على من يتبعه أن يكون مستعداً لكل شيء: "لا تظنوا أنني جئت لألقي سلاماً على الأرض، لا، ما جئت لألقي السلام بل السيف، جئت لأفرق الإنسان عن أبيه،



والبنت عن أمها، والكنة عن حماها؛ فأعداء الإنسان أهل بيته الأقربين. فمن أحب ابنه أو ابنته أكثر مني، فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني. ومن وجد نفسه أضاعها، ومن أضاع نفسه من أجلي وجدها" (متى 10: 34-39).

وفي الإنجيل مواضع كثيرة تروي ما كان بين يسوع والفريسيين من النزاع، لما كان له من السلطان على الشريعة وعلى معلمها.

فكان لعطلة السبت عند اليهود أهمية بالغة، فهي في نظرهم من القوانين الجوهرية في الشريعة كعطلة الأحد عند المسيحيين.

وكان يسوع، في سبيل عمل جيد، يخرق السبت ويأذن لرسله بخرقه في أمور يسيرة، ولا يريد أن يعلق هذا الاهتمام العظيم على ما لا يستحقه: "فابن البشر هو رب السبت" (متى 12: 8) ورب أمور أخرى كثيرة غير السبت.

وكان يرى بخلافهم، أنهم يدنسون الهيكل بالمتاجرة فيه. فيطرد الباعة منه وهو يصرخ بهم: "لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة" (يوحنا 2: 16) يتصرف تصرف سيد مطلق، ولكنه لا يصرح إلا تدريجياً بما يريد أن يفتكروا فيه.

فالفريسيون لا يقبلون تعليمه، لأنهم يعرفون الشريعة، ويعرفون تفسيرها، ولا يرضون بغير التفسير التقليدي الذي يتضمن لهم حفظها.

فهم ينتقضون بسوع، ويسألونه أحياناً: من أنت؟ كما صنع رؤساء الكهنة والشيوخ، يوم راوه يعلم في الهيكل؛ فقالوا له: "بأي سلطان تفعل هذا، ومن أعطاك هذا السلطان؟" فلم يجيبهم مباشرة، لعلمه أنهم لا يقبلون كلامه، بل سألهم: ماذا ترون في معمودية يوحنا؟ ولما أبوا أن يجيبوا، خوفاً من أن يتورطوا، قال: "ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا" (متى 21: 27).

إنه يريد أن يبين لنا من هو، يريد أن نعرفه برؤية أفعاله وبسماع تعليمه أكثر مما نعرفه بالكلام عنه. فهو يسلك كأن العالم كله كان يعرفه، وكأن سلطانه ليس بحاجة إلى برهان ولا دليل.

عرفه تلاميذه، رويداً رويداً، كما روى متى في الفصل الثامن من إنجيله عن تسكين العاصفة: "لما ركب يسوع السفينة تبعه تلاميذه. وإذا اضطراب عظيم حدث في البحر حتى غمرت

الأمواج السفينة؛ وكان هو نائماً. فدنا إليه تلاميذه، وأيقظوه قائلين: يا رب، نجنا فقد هلكنا. فقال لهم: لماذا أنتم خائفون، يا قليلي الإيمان، ثم قام وانتهر الريح والبحر. فحدث هدوء عظيم. فدهش التلاميذ وقالوا: من تُرى هذا؟ فإن الريح والبحر يطيعانه" (مرقس 4: 40).

كانوا، منذ تبعوه، قد أظهروا أنهم عرفوا فيه المسيح وأمنوا به؛ ولكن إيمانهم به كان وما زال حتى الآن غامضاً، فهم يؤمنون به وقد وثقوا به الثقة كلها، غير أنهم لا يدرون بما يؤمنون.

ونجد في الفصل السادس من إنجيل مرقس (6: 45-51) خبر سفر آخر في البحر. فإن يسوع بعد أن كثر الخبز، أول مرة، أرسل تلاميذه إلى الجانب المقابل من البحيرة؛ وظل وحده يصلي في الجبل. ولكن السفينة توقفت عند هبوط الليل وظلت تترجّح في الماء ولا تتقدم، لأن الريح كانت عليها. فلما كان الهزيع الأخير من الليل، لحق يسوع بهم، فرأوه يمشي على الأمواج فخافوا. فقال لهم: "لا تخافوا، أنا هو" فقال بطرس: إن كنت أنت هو، فدعني أت إليك على المياه. فقال: ائت. فمشى بطرس على الماء، آتياً إلى يسوع. وإذا بالريح تشتد وبالبحر يموج فيخاف بطرس، ويغوص في الماء فيصرخ: "يا رب نجني" فيتناوله يسوع بيده، وهو يلومه على ارتيابه، ثم يصعد به إلى السفينة، وتسكن الريح، ويهدأ البحر، ويعمر قلب التلاميذ بالإيمان فيقولون: "حقاً، أنت ابن الله".

\*\*\*

لم تخفَ على الشعب أعمال يسوع، فجعل يتحدث عنها. وقد ذكر القديس يوحنا ما لم يذكره الآخرون. فهو يرينا الشعب يسأل عن يسوع في عيد المظال، ويتجادل فيه. وإذا ما ظهر بينهم وأخذ يتكلم، قالوا: "هذا الرجل، كيف يعرف الكتب ولم يتعلم؟" (يوحنا 7: 15) فيجيهم يسوع: "إن تعليقي ليس مني، بل ممن أرسلني" ثم يسألهم: "أوليس موسى قد أعطاكم الشريعة؟ وما من أحد فيكم يعمل بها". ولا يزالون ما بينهم في خصام فيه؛ فيقول بعضهم: "أليس هذا من يطلبون قتله؟ ها إنه يتكلم في الجهر ولا يقولون له شيئاً. أعلّ الرؤساء قد أيقنوا أنه المسيح؟ ويقول آخرون: "كلا، إن هذا قد عرفنا من أين هو؛ أما المسيح، فإذا جاء، لا يعلم أحد من أين هو". ويواصل يسوع خطابه في الهيكل. والهيكل في أورشليم كالندوة عند الأثينيين ملتقى الشعب كله: "أجل، إنكم تعرفونني، وتعلمون من أين أنا! ... مع أي لم أت من

قبل نفسي. والذي أرسلني حق، وأنتم لا تعرفونه. أما أنا، فأعرفه لأني من لدنه، هو الذي أرسلني".

وعاد اليهود بعد حين وسألوه: "من أنت" (يو 8: 25) وإنجيل يوحنا كله يدور حول هذا السؤال: من هو يسوع؟

ويسوع لا يصحّ بالجواب لعلمه أن ذلك غير ضروري. فقد أظهر من هو بما أتى من الأعمال، وما نطق به من الأقوال. والذين يكثرون من الأسئلة فإنما هم أولئك العازمون ألا يؤمنوا به. "من أنت؟" فيقول: "أنا ذلك الذي كلمتكم عنه منذ البدء" ويواصل القول: "إن لي في شأنكم أشياء كثيرة أقولها واحكم بها. ولكن الذي أرسلني حق، وما سمعته منه به أتكلم في العالم. فلم يفهموا أنه يكلمهم عن الآب".

ووقع عيد التجديد في أورشليم، وكان شتاء، وكان يسوع يذهب ويحيى في الهيكل، في رواق سليمان، فتحلّق اليهود حوله وقالوا له: "حتامَ نريب أنفسنا. إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهراً" (يو 10: 24).

سيتكلم هذه المرة، وهو مقتنع بأن لا فائدة في ذلك: "لقد قلته لكم، ولا تصدقون، والأعمال التي أعملها باسم أبي هي تشهد لي. غير أنكم لا تصدقون، لأنكم لستم من خرافي. إن خرافي تسمع صوتي، أنا أعرفها وهي تتبعني. وأنا أولها حياة أبدية فلا تهلك إلى الأبد، ولا يخطفها أحد من يدي. إن ما أعطاني أبي هو أثمن من كل شيء، ولا أحد يستطيع أن يخطفه من يد الآب. أنا والآب واحد" (يو 10: 22-30).

عبثاً قال يسوع ما قال. فمن كانوا أهلاً لأتباعه، فقد عرفوه من قبل؛ وأما الباقون، فلن يقنعهم الكلام.

وصاحوا: "إنه يجدف. هو إنسان يزعم أنه إله. وجمعوا حجارة ليرجموه.

\*\*\*

لم يكن من آمنوا بيسوع من اليهود كثيرين. وربما تصورنا أن الجموع كانوا يهتدون، جملة، لسمع صوته، كما يتوهم الكثيرون أنهم لن يقاوموه، لو سمعوه. وهذه حجة ليعزوا فتورهم إلى عدم رؤية المخلص. أما الواقع فإن معظم من سمعوه لم يؤمنوا.

لم كان يلمح إلى ذلك، أمام تلاميذه، كان يقول: "إن الحصاد كثير والفعلة قليلون؛ فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده" (لوقا 10: 2) ويقول في موضع آخر: "لا تخف أيها القطيع الصغير، لأنه قد حسن لدى أبيكم أن يعطيكم الملكوت" (لوقا 12: 32). ويشبهه تلاميذه بالملح، والنور: "أنتم ملح الأرض... أنتم نور العالم" (متى 5: 13-14). "ويشبهه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكياس من الدقيق حتى اختمر الجميع" (متى 13: 33) ويشبه كنزاً، ولؤلؤة... تدل جميع هذه التشابيه أن يسوع لا ينتظر أن يقبل الجميع رسالته. "على أن الشعب كله كانوا يستمعون إليه في شغف" (لوقا 19: 8) ويتزاحمون لسماعه، والإنجيل يدل في مواضع مختلفة أن الجماهير كانت تزحمه وتبعه، ولكنهم فضوليون لا تلاميذ، يأتون ليسمعوه، لأنه جذاب، يصنع العجائب ولا أحد يتكلم مثله. ويقف، قبالة، الكتبة والفريسيون الأطهار، والكهنة ورؤساء الكهنة، جميع هؤلاء يمثلون المجمع، ويأبون أن يلاموا، أو أن يعترض على تعليمهم، أو أن يقوم أحد معلماً، ولم يتخرج عليهم – فحمل هؤلاء على يسوع يعارضونه معارضة عنيفة. والشعب يستمع إلى الطرفين ويقابل بين الواحد والآخر.

ففي لهجة يسوع شيء من الغموض، شيء عذب يخاطب القلب، لا يعرف منه كل ما يريد: "من كان عطشان، فليأتي إليّ ويشرب، من آمن بي فستجري من جوفه، كما قال الكتاب، أنهار ماء حي" (يو 7: 37-38). "تعالوا إليّ يا جميع التعبين والمثقلين، وأنا أريحكم. احملوا نيري عليكم، وكونوا لي تلاميذ، فتجدوا الراحة لنفوسكم، لأنني وديع ومتواضع القلب. أجل، إن نيري لين وحملني خفيف" (متى 11: 28-30).

فما هذا الماء الذي يعطيته يسوع؟ ومن أين تأتي الراحة؟ إن يسوع لم يعد بإصلاح اجتماعي، ولا بتحرير العبيد، ولا بتوزيع الأموال على العمال، ولا بالصحة على المرضى. لأن ليس الملكوت شيئاً منظوراً. بما تقوم هذه السعادة التي جاء يسوع بها، ويداه فارغتان؟

## الفصل الثاني

### طوبى للنقية قلوبهم فإنهم يعاينون الله

"طوبى لأنقياء القلوب فإنهم يعاينون الله" (متى 5: 9).

ما جاء يسوع بإصلاح اجتماعي؛ ولا جاء يوطّد سلطان العدل على الأرض؛ فإن ملكوته في داخلنا، وراء هذا العالم، وبشارته موجهة إلى نفوسنا.

كان اليهود يطلبون السعادة على الأرض؛ ونحن نطلبها مثلهم، ومنتظر من المسيح أن يبلغنا إياها. ولكنه أتانا بما نستطيع به أن نتخلى عنها. فأكثر المسيحيين لا يقبلون تعليم يسوع خيراً من اليهود. إنهم يتبعونه بلسانهم، ويسلمون ببعض ما تعلمه الكنيسة، على أن لا يزعجهم، فلا يرضون أن تقول لهم: "طوبه لكم إذا عيروكم، واضطهدوكم، وافترؤا عليكم بكل سوء من أجلي" (متى 5: 11).

إن رغبة السعادة على الأرض متأصلة في قلب الإنسان، وتقديره الأمور بقيمها المادية فطري في طبعه؛ على أن يسوع قد جاء بخيرات أخرى؛ ولا بد من الزهد فيما في الدنيا للدخول إلى الملكوت.

فآداب الإنجيل، ومواعظ يسوع الأدبية، جميعها تهيب بنا إلى التفلت من القيود الأرضية. جميعها، حتى أحق العواطف المشروعة.

تلك، ولا شك، أشهر النصوص التي تؤثر في أذهان الكثيرين من الناس، بدون أن يمارسوها. التسامح وعدم الدفاع عن الكرامة الشخصية: "سمعت أنه قيل، عين بعين، وسن بسن. أما أنا فأقول لكم، لا تقاوموا الشرير، بل من لطمك على خدك الأيمن، فقدم له الأهر أيضاً. ومن أراد أن يرافحك إلى القضاء ويأخذ ثوبك، فخلّ له الرداء أيضاً. ومن سخّرك لميل واحد، فامض مع ميلين. من سألك، فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك، فلا تحول وجهك عنه".

"وسمعت أنه قيل، أحبب قريبك وأبغض عدوك، أما أنا فأقول لكم، أحبوا أعداءكم، وصلوا لأجل الذين يضطهدونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات. فإنه يطلع شمس على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والأثمة. فإنكم إن أحببتم من يحبكم فأجر لكم؟ أليس العشارون أنفسهم يفعلون ذلك؟ وإن لم تسلموا إلا على إخوانكم فقط، فأى عمل خارق تصنعون. أوليس الوثنيون أنفسهم يفعلون ذلك؟ فأنتم إذاً، كونوا كاملين، كما أن أباكم السماوي هو كامل" (متى 5: 38-48).

الزهد في الخيرات الأرضية: "لا تكتزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث العث والصدأ يتلفان، وحيث اللصوص ينقبون ويسرقون، بل اكتزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يتلف عث ولا صدأ، وحيث لا ينقب لصوص ولا يسرقون. فإنه حيث يكون كنزك، فهناك يكون قلبك" (متى 6: 19-21).

"إن الثعالب لها أوجرة، وطيور السماء لها أوكار، أما ابن البشر فليس له موضع يسند إليه رأسه" (لو 9: 58).

"ليس التلميذ أفضل من المعلم ولا العبد أفضل من سيده... حسب التلميذ أن يكون كمعلمه" (متى 10: 24-25).

وسمعه إنسان فقال له: "أتبعك يا سيدي، لكن أئذن لي أن أودع أهلي. فقال له يسوع: من وضع يده على المحراث ونظر إلى الوراء، فليس بأهل لملكوت الله" (لو 9: 61-62).  
لقد مرّ القول: "من أحب أباً أو أمّاً أكثر مني فلا يستحقني ... " وهذا القول يفسر الكلام السابق.

وفي إنجيل القديس لوقا نص آخر أشد مما ذكر: "إن كان أحد يأتي إليّ ولا يبغض أباه وأمه وامراته وبنيه وإخوته وإخوانه بل نفسه أيضاً، فلا يستطيع أن يكون لي تلميذاً" (لو 14: 26).  
ينبغي التخلّي عن كل شيء، لإتباع يسوع ودخول الملكوت. فلا الأموال ولا العواطف البشرية بل الذات عينها: "من أراد أن يتبعني، فليكفر بنفسه، وليحمل صليبه ويتبعني. فإن من أراد أن يخلص نفسه، يهلكها، أما من يهلك نفسه من أجلي ومن أجل الإنجيل فإنه يخلصها" (مرقس 8: 34-35). يعدّ هذا النص من المبادئ الأساسية، وقد ورد سبع مرات في الأناجيل الأربعة. مع بعض الاختلاف في التعبير. "الحق الحق أقول لكم، إن حبة الحنطة التي تقع في الأرض، إن لم تمت، فإنها تبقى وحدها، وأما إن ماتت، فأنها تأتي بثمر كثير. من أحب نفسه فإنه يهلكها، ومن أبغض نفسه في هذا العالم، فإنه يحفظها للحياة الأبدية" (يو 12: 24-25).

وإن يسوع ليخاطب نفسه بمثل ما يخاطبنا به، وقد جعل ذاته مثلاً لنا. فلم يقف عند حث الغير على التخلّي عن كل شيء، بل كانت حياته نفسها موعظة، وتحقيقاً لتعليمه.

إن هذه النصوص تبدو لنا قاسية، ويندر بين الناس من يقبلونها، بلا شيء من الاحتجاج، غير أننا لا نستطيع أن نغفلها، فما هي بعبارات بدرت من يسوع، عرضاً، في جدال، إنما هي جزء جوهرى من تعليمه. وقد ورد الكثير منها في خطاب الجبل، وهو خلاصة تعليم يسوع العام، ثم تكرر ذكرها في الأناجيل جميعها. فلا سبيل إذأً إلى إغفالها أو إلى مناقشتها. فمن قبل يسوع، يجب أن يقبلها. ولكل أن ينعم النظر فيها، ليرى مكانتها من تعليم الرب. ولكن لا يمكن إنعام النظر فيها، بحسب روح الإنجيل، إلا بعد قبولها والإذعان لها، مهما كانت النتائج.

فقد كان لهذه التعاليم الزهدية أشد تأثير في الأذهان لما فيها من مخالفة الشهوات - ومعظم الناس يعيشون في الشهوات - على أن هذه المبادئ الأدبية ليست خاصة بالمسيحية، فإن لها نظيراً في آداب العالم العظمى كالصين والهند واليونان. وإنما شدد يسوع هذا التشديد لما يعرفه من قوة اصطدام الأهواء الطبيعية بها، ولما يعرفه أيضاً من محاولة الطبع ملامتها. وفي وسعنا أن نؤلف تاريخاً لما بذله بعض المسيحيين، ليخففوا أو يمسخوا ما في تعليم يسوع من أوامر شاقة على الطبع.

على حين أن ليس الزهد سوى الخطوة الأولى في سبيل الطهارة القلبية، لأنه يعتق القلب من نير الأشياء الحقيرة، ومن حب النفس خاصة. فتفتح طهارة القلب بالزهد تفتح الزهرة على الساق. وهناك أنواع كاذبة من الزهد. وكل ما لا يؤدي أو لا يعين على التخلي عن حب الذات فهو زهد باطل. فمن يزهد في المال والشرف، وإمرأته وبنيه، ولا يبلغ إلى الزهد في الذات فهو متعلق بنفسه أشد التلق؛ لأن التعلق بالنفس هو أشد تأسلاً في الإنسان من أي تعلق سواه. ومن يتجرد من أشياء خارجة عنه، فقد يزداد تعلقاً بنفسه ويشغل فراغ باله من الأمور الخارجية بالاهتمام بذاته فسيتكبر ويتعاضم.

ليس القلب النقي الذي يعاين الله هو ذلك الشخص المهذب، الساهر على سلوكه، القاسي على غيره، إنما هو ذلك القلب المقبل على كل جمال، لأنه منقطع عن الخلائق جميعها، ولا شيء من خيرات الدنيا يلهيه عن الخير الحقيقي، فهو يطلب القيم الحقيقية، فيملأ الله قلبه غبطة وسلاماً.

هل من حاجة إلى المزيد؟ إن الأرضيين لن يفهموا أبداً. فملكوت الله كُنز مخفي، فكيف نكشفه لمن لا يميز بين الحجر والجوهر؟ فمن له أذنان سامعتان فليسمع.

\*\*\*

"احذروا من ان تصنعوا بركم قدام الناس لكي ينظروا إليكم؛ وإلا فلا أجر لكم عند لأبيكم الذي في السموات".

"فمتى صنعت صدقة فلا تبوّق بها قدامك، كما يفعل المرءون في المجمع، وفي الشوارع، لكي يمجدهم الناس؛ الحق أقول لكم: إنهم قد نالوا أجرهم. أما أنت، فإن تصدقت، فلا تعلم شمالك ما تصنع يمينك؛ لكي تكون صدقتك في الخفية؛ وأبوك الذي يرى في الخفية، يجازيك عنها. ومتى صليت فلا تكونوا كالمرائين؛ فإنهم يحبون الصلاة قياماً في المجمع وفي زوايا الساحات لكي يظهروا للناس؛ الحق أقول لكم إنهم قد نالوا أجرهم. أما أنت فمتى صليت فادخل حجرتك وأوصد الباب، وصل إلى أبيك الذي في الخفية؛ وأبوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك".

"وفي الصلاة لا تكرر الكلام عبثاً مثل الوثنيين؛ فإنهم يتوهمون أنهم لكثرة الكلام يستجاب لهم. فلا تشبهوا بهم، فإن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه" (متى 6: 1-8).

قد يلزمنا هنا أن نورد خطاب الجبل برمته وكثيراً غيره، مما يبين لنا أن العمل الجيد حسبه أن يتم أمام نظر الله، بلا التفات إلى الناس ولا إلى الذات.

"ومتى صمت، فلا تكونوا معبسين كالمرائين، فإنهم ينكرون وجوههم ليظهروا للناس صائمين؛ الحق أقول لكم، إنهم قد نالوا أجرهم، أما أنت، فمتى صمت، فطيب رأسك واغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائماً، بل لأبيك الذي في الخفية؛ وأبوك الذي يرى في الخفية هو الذي يجازيك" (متى 6: 16-18).

"لا تدينوا لئلا تدينوا، فإنكم بالدينونة التي بها تدينون تدينون، وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم. ما بالك تنظر إلى القذى الذي في عين أخيك... والخشبة التي في عينك لا تنتبه لها. بل كيف تقول لأخيك دعني أخرج القذى من عينك؛ وفي عينك أنت خشبة. أيها المرئي، أخرج أولاً الخشبة في عينك، وعندئذ تبصر كيف تخرج القذى من عين أخيك" (متى 7: 1-5).



\*\*\*

العالم لن يفهم أبداً. قال يسوع: "أنا لست من العالم" (يوحنا 8: 23) وقال لليهود: "أنتم من العالم. ولهذا، تموتون في خطاياكم".

العالم كبرياء وشهوة. والمتكبر لن يفهم يسوع أبداً. لأن المتكبر لا يرى غير ذاته، ويقدم على الله مبادئ مدرسته وعادات عالمه.

فالصغار يفهمون. "أحمدك، يا أبت، رب السماء والأرض، لأنك أخفيت ذلك عن الحكماء وأصحاب الدهاء، وكشفته للأطفال. نعم، يا أبت، فإنه هكذا حسن لديك" (متى 11: 25-26).

\*\*\*

"أبوك الذي يرى في الخفية يجازيك"

فيقول ذو الروح العالمي: وبمّ يجازيني؟

أما ذو القلب النقي فلا يهتم. حسبه أن أباه يرى، فأبوه يسهر عليه، وأبوه يعلم ما يحتاج إليه. ذو القلب النقي لا يخاف ممن يقتلون الجسد ولا يستطيعون أن يهلكوا النفس. إنه يسمع صوت المخلص يقول: "ألا يباع عصفوران بفلس؟ ومع ذلك لا يسقط واحد منها على الأرض بدون إذن أبيكم! لا تخافوا، إذن؛ فإنكم أفضل من عصافير كثيرة. وشعر رؤوسكم محصى بأجمعه".

"كل من يعترف بي قدام الناس أعترف، أنا أيضاً به قدام أبي الذي في السموات. وأما من ينكرني قدام الناس، فإني أنكره أنا أيضاً، قدام أبي الذي في السموات" (متى 10: 28-33).

ما أبعدنا عن العهد القديم، عن عرش داود، عن الممالك والسيادات وعن المشكلة الاجتماعية. هنا الأب. وذوو القلب النقي يفهمون.

"إن شاء أحد أن يعمل مشيئة الأب، يعرف هل هذا التعليم هو منه، أم أنا أتكلم من عند نفسي" (يو: 7: 17).

هكذا، يكشف يسوع نفسه للقلوب النقية، فمن كان قلبه نقياً، يطلب مشيئة الله، ويميل إليها، تلقائياً، لا احتياج إلى برهان، لأن النور فيه، يضيئه، فيرى مشيئة الله، ويسمع صوت يسوع، ويحلّ في نفسه اللطف الإلهي.

\*\*\*

يرينا الإنجيل عدداً من القلوب النقية حول يسوع.

ولا نقصد بهؤلاء مريم العذراء القديسة، وهي فوق جميع الخلائق، ولا يوحنا المعمدان المختار من حشا أمه، بل نقصد أولئك الرعاة الذين تلقوا الرسالة الأولى، ليلة الميلاد نفسها. فجاءوا، فوراً، ينظرون الطفل، "وعادوا وهم يمجدون الله ويسبحونه على جميع ما سمعوا وعانوا" (لو2:2).

فماذا عانوا وماذا سمعوا؟ لا شيئاً عظيماً، بل لا شيء، طفلاً صغيراً كباقي الأطفال.

وماذا نالوا؟ لا شيء وهم، مع ذلك، سعداء. ممّ؟

ثم يجيء المجوس، يجيئون من بعيد، تلبية للنجم. وقد أتوا ليسجدوا لملك. ولهذه الكلمة، هنا، في نفوسهم أكثر من فكرة ملك عادي. فإن في الدنيا ملوكاً كثيرين لا يفكرون في رؤيتهم.

بلغوا المنزل الوضيع في بيت لحم، فلم يروا ما يشبه منازل الملوك، "وفرحوا فرحاً عظيماً" (متى 2:10). ثم قدموا للطفل أئمن الهدايا، وعادوا على أعقابهم، مسرعين. لقد عانوه؛ وحسبهم.

فماذا عانوا؟ لا شيئاً عظيماً، طفلاً، في ظاهره، كباقي الأطفال. كلاً، لقد رأوا أن هذا الطفل الصغير هو "الطفل" وفي رؤيته غنى الحياة.

لكن من يفهم هذا ممن لا همّ لهم إلا في المال؟

ولما بلغ يسوع الشهر، أخذه أبواه، فقدماه للرب في الهيكل.

"وكان في أورشليم رجل اسمه سمعان؛ وكان هذا الرجل صديقاً تقيّاً، وكان ينتظر تعزية إسرائيل؛ والروح القدس كان عليه" (لوقا 2:25).

هو أيضاً عرف الطفل، فأخذه على ذراعيه، وأنشد تسبيح الفرح، أجمل ما أملاه الإيمان على شفاه البشر: "الآن، أيها السيد، تطلق سبيل عبدك، على حسب قولك (فيذهب) بسلام، لأن

عينيّ قد شاهدتا خلاصك الذي أعددتَه، أمام وجوه الشعوب كلها، نوراً يضيء للأمم، ومجداً لشعبك إسرائيل" (لوقا 2:22).

رأى الطفل، فتمّت حياته. وماذا قبل من الطفل؟ لا شيء في الظاهر. وقد قبل كل شيء.

وهذا شأن حنة النبية أيضاً.

فطوبى للنقية قلوبهم، فإنهم يعاينون الله.

\*\*\*

وقد أظهرت حياة يسوع العامة عدداً آخر من القلوب النقية:

وأولهم الرسل، وإن يكن يسوع قد اختارهم، فلم يأتوا إليه بأنفسهم، وقد خيّبوه مراراً. وزكا العشار، فقد هُت حين أراد يسوع أن ينزل عنده؛ فوعد لساعته أن يعطي المساكين نصف ماله. ولماذا؟ وما يمكن أن يعوّضه من خسارته؟ لا شيء من المنظورات، بدون ريب. فاسمعوه مع ذلك يقول: "هأنذا أعطي المساكين نصف أموالي، وإن كنت قد ظلمت أحداً، فإني أردّ أربعة أضعاف".

فقال له يسوع: "اليوم قد حصل الخلاص لهذا البيت؛ فإنه هو أيضاً ابن لإبراهيم" (لوقا 19: 10-1).

ولا يخفى أن اليهود كانوا يكرهون العشارين، جباة الضرائب للرومان، ويحتقروهم، وينكرون عليهم خدمة محتلي البلاد.

وهناك قائد المئة، وهو أجنبي وثني، شفى يسوع غلامه. لقد أظهر إيماناً حياً جعل يسوع يقول: "الحق أقول لكم، إنني لم أجد مثل هذا الإيمان في إسرائيل". ثم يردف قائلاً: "ولهذا أقول لكم إن كثيرين يأتون من المشارق والمغرب ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السموات؛ أما بنو الملكوت فيلقون في الظلمة الخارجية؛ هناك يكون البكاء وصريف الأسنان" (متى 8: 5-13).

هل يكفي الإنسان أن يكون صحيح الإيمان حتى يستحق أن يحصى بين أتقياء القلوب. وهل ذاك من السهولة بحيث تظن؟

إليكم المرأة الخاطئة، فإنها امرأة سيئة السيرة في المدينة. يحضر يسوع للعشاء عند سمعان الفريسي، وهو أحد وجوه قومه. فتدخل تلك المرأة، حاملة وعاء طيب، فتجتو من وراء يسوع، وهو متكئ في بيت الفريسي. فتبكي وتغسل بدموعها وطيبها قدمي المخلص، وتمسحهما بشعر رأسها، وتقبلهما. وإذا بها تسمع يسوع يقول لها: مغفورة لك خطاياك. امضي، لا تعودى تخطئين" (لو 7: 36-50).

وإليكم اللص الطيب، فهو خاطئ مشهور. يعرف يسوع، وهو مصلوب معه؛ فيحاول أن يسكت زميله اللص الآخر المصلوب معهما عن شتم يسوع فيقول له: "أفلا تخشى الله وأنت مشترك في الحكم نفسه؟ أما نحن فبعدل، إننا نعاقب مما قدمت أيدينا، أما هو فلم يفعل شيئاً من السوء". وأضاف قائلاً: "يا سيدي، اذكرني، من أتيت في ملكوتك".

هوذا فعل إيمان صريح كإيمان سمعان، أحدهما في البداية والآخر في النهاية.

كان يسوع حين خاطبه اللص كأنه قد وهى وتلاشى من طول ما احتما من السبّ والتحقير، طوال الليل وطول الصباح. فهو دام، مشوّه، مشرف على الموت، وقد تركه الجميع؛ فأمسى وكأن ليس عليه شيء من العظمة الإلهية.

أما اللص، وإن لم يكن بالعايد ولا بالزاهد، فقد رأى، فقال: "يا يسوع، اذكرني، متى جئت في ملكوتك".

فقال له يسوع: "الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الملكوت".

\*\*\*

"طوبى لأنقياء القلوب فإنهم يعاينون الله".

لقد رأينا الرعاة المتواضعين، والمجوس العلماء المشرفين، وسمعان وحنة ما بين الأنبياء، ورأينا عشاراً، وجندياً، وزانية، ولصاً جميعهم قبلهم يسوع بين أنقياء القلوب.

ولم يوجب على العشار والقائد أن يتركا عملهما، ولا لمّح في الإنجيل إلى مهنة، ولا إلى مسألة اجتماعية، بل كلما كانوا يحاولون استدراجه إلى تلك الشؤون، كان يتوارى، كما جرى للفريسي إذ سأله: هل ندفع الجزية لقيصر؟

ولكن أما إن هذا كله بعيد عما رأينا فيما تقدم من الموجبات الرهيبة. أن النصوص تشهد.

### الفصل الثالث

#### حُبّ الأب

"أبوك الذي يرى في الخفية يجازيك" ...

إن رسالة الابن هي التبشير بالأب: التبشير بأن الله أب. تلك النقطة الأولى من بشارة الإنجيل؛ والباقي مؤسس جميعه عليها. تلك هي الحقيقة الأولى التي تتميز بها المسيحية عن سواها من الديانات الأخرى جميعها، لأننا وحدنا نعرف أن الله أب.

لنتذكر كلام أشعيا: "ويل لي! لقد هلكت ... إن عيني قد أبصرتا الملك، يهوه رب الجنود".  
فما عاد الله يهوه رب الجنود. بل إنه أبونا، وإنه يحبنا حباً يفوق الوصف: "لقد أحب الله العالم حتى أنه بذل ابنه الواحد، لكيلا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية فإن الله لم يرسل ابنه إلى العالم، ليدين العالم، بل ليخلص به العالم" (يوحنا 3: 16-17).  
فنزول الابن بيننا شهادة على حب الأب لنا: "فابن البشر لم يأت ليخدم بل ليخدم، ويبذل نفسه فدية عن كثيرين" (متى 20: 28).

وسر التجسد والفداء، والمسيحية كلها، متأصلة في الأبوة الإلهية.

\*\*\*

حب الأب ومثل الابن الشاطر.

لقد أساء هذا الابن الأدب نحو أبيه، حين طلب منه نصيبه من الميراث.  
وبعد أيام غير كثيرة جمع كل شيء له وسافر إلى بلد بعيد، وبذّر ماله هناك، عائشاً في الخلاعة، فلما أنفق كل شيء له، حدثت في ذلك البلد مجاعة شديدة فأخذ في العوز... حينئذ فكر في نفسه وقال: "كم لأبي من العبيد يفضل عنهم الخبز وأنا ههنا أهلك جوعاً. أقوم وأمضي إلى أبي... فقام وجاء إلى أبيه وفيما هو بعيد رآه أبوه وتحنّ عليه وأسرع وألقى بنفسه على عنقه وقبله"... ولم ينتظر حتى يعتذر له.

هكذا عامل يسوع المخلع إذ قال له: "مغفورة لك خطاياك" قبل أن يظهر توبته عنها (متى 9: 2).

قال الابن: "يا أبت لقد أخطأت إلى السماء وأمامك ولست مستحقاً بعد أن أدعى لك ابناً"...  
لكن الأب لم يدعه يتم كلامه، ونادى عبده وقال لهم: "هاتوا الحلة الأولى وألبسوه، واجعلوا في يده خاتماً، وفي رجله حذاء، وأتوا بالعجل المسّمّن واذبحوه فنأكل ونفرح، لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوجد".

هوذا حب الأب.

بمثل هذا ظهر يسوع بعد قيامته لمن تركوه من رسله، ولم يعاتبهم، بل قال لهم: "السلام معكم، أنا هو، لا تخافوا".

"لا تخافوا" ليس علينا أن نخاف البتة من أبينا السماوي، مهما كان ضعفنا. فإن حبه يفوق كل حب.

ولما سمع أخو الابن الشاطر الأكبر أصوات الغناء والرقص، غضب وأبى أن يدخل، فخرج أبوه وطفق يتودّد إليه فقال لأبيه: "كم لي من السنين أخدمك، ولم أتعدّ وصيتك قط، وأنت لم تعطني جدياً اتنعم به مع أصدقائي. ولما جاء ابنك هذا الذي بدّد مالك مع الزواني، ذبحت له العجل المسمن. فقال له أبوه: يا ابني، أنت معي كل حين، وكل ما هو لي فهو لك، ولكن كان ينبغي أن نتنعم ونفرح، لأن أخاك هذا كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوجد".

ولكن البكر لم يرض. ونحن نرانا معه قلبياً. وهذه حال الكنيسة، فكلما ابتهجت بعودة ضال، لمناها في سرّتنا، لأن الطيبين يطالبون بتكريم الفضيلة، وينسون: "أبوك الذي يرى في الخفية... يجازيك" نعم، هذا لا يكفي. ينبغي أن يكرمونا على الأرض. نريد أن نكون صالحين، ولكن يجب أن نحرص على كرامتنا...

"أي إنسان منكم له مائة خروف فأضاع واحداً منها، لا يترك التسعة والتسعين الأخرى في البرية، ويمضي في طلب الضال حتى يجده؟ وإذا ما وجده يحمله على منكبيه فرحاً، ويعود إلى بيته ويدعو الأصدقاء والجيران، ويقول لهم: افرحوا معي، فإني قد وجدت خروفي الضال. فأقول لكم، هكذا في السماء، يكون فرح بخاطئ يتوب أكثر مما يكون بتسعة وتسعين صديقاً لا يحتاجون إلى توبة" (لوقا 15: 4-7).

إذ كنا نعتقد أننا صديقون، لا نحبّ مثل هذا الخطاب.

لكن يسوع يريد رحمة لا ذبيحة.

فبينما كان متكئاً في بيت متى، أقبل كثيرون من العشارين والخطاة واتكأوا معه ومع تلاميذه. فلما رأى الفريسيون ذلك، قالوا لتلاميذه: "لمّ معلمكم يأكل مع العشارين والخطاة؟" فسمع، فقال لهم: "الأصحاء لا يحتاجون إلى طبيب، بل الذين ساءت حالهم؛ فاذهبوا إذن، وتعلموا

ما معنى هذا القول: "أريد الرحمة لا الذبيحة؛ فإني لم آت لأدعو الصديقين بل الخطأة" (متى 9:10-13).

\*\*\*

إن يسوع يبدي شدة مقتته لمن يغيرون مبادئ الحب. على أن ليس هناك إلا حبّان: حب الله وحب والبشر. وكلاهما يؤولان إلى واحد، وفيهما الشريعة كلها.

ومن أسباب الخصومة ما بين يسوع والفريسيين احتقاره بعض تقاليدهم: "لماذا لا يغسل التلاميذ أيدهم قبل تناول الطعام؟" فيقول لهم: "ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان بل ما يخرج من الفم. فمن القلب تخرج الأفكار الشريرة، والقتل والزنى، والفسق، والسرقة، وشهادة الزور، والتجديف. وذلك هو ما ينجس الإنسان؛ وأما الأكل بأيد غير مغسولة فلا ينجس الإنسان" (متى 15:1-20).

"ويل لكم، أيها الكتبة والفريسيين المرءون، لأنكم تؤدون العشر من النعناع والشبث والكمون (المسيحيون الذين يصومون السبت ولا يذهبون إلى حضور القداس يوم الأحد) وقد أهملتم أثقل ما في الشريعة: العدل، والرحمة، والأمانة، فكان عليكم أن تعملوا بهذه، من غير أن تهملوا تلك. ياللقادة العميان الذي يصقون من البعوضة وبلعون الجمل!

"ويل لكم، أيها الكتبة والفريسيين المرءون، فإنكم تطهرون خارج الكأس والصحفة وهما من الداخل مترعان سلباً وجشعاً. إنكم تشبهون القبور المكسّسة. إنها تبدو من الخارج جميلة، وهي من الداخل مليئة بعظام أموات وكل نجاسة، كذلك أنتم أيضاً. فخارجكم يوهم الناس أنكم صديقون، وأما الداخل فمفعم رياءً وإثمًا" (متى 23:23-28).

"وأنتم أيضاً يا علماء الشريعة، ويل لكم، لأنكم تحمّلون الناس أحمالاً شاقة الحمل، وفي حين أنكم لا تمسونها بإحدى أصابعكم" (لو 11:46).

\*\*\*

"إن نيري طيب وحلمي خفيف... ويل لكم، أنتم الذين تحملون الناس أحمالاً ثقيلة... من لا يبغض أباه وأمه... اليوم تكون معي في الملكوت... أريد الرحمة لا الذبيحة... جاء ابن البشر لا ليدين بل ليخلص... ومن يرد أن يخلص نفسه فليهلكها..."

كيف نوفق بين هذه الشدة كلها وبين الرحمة كلها؟

\*\*\*

"أنا الراعي الصالح. الراعي الصالح يبذل نفسه عن خرافه" (يو 10: 11).

"ما من حب أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبائه" (يو 15: 13).

"لا تضطرب قلوبكم. آمنوا بالله، وآمنوا بي أيضاً، إن في بيت أبي منازل كثيرة؛ وإلا لكنت قلت لكم. إني أنطلق لأعدّ لكم مكاناً، وإذا ما انطلقت وأعددت لكم مكاناً، أرجع وأخذكم إليّ،

لتكونوا أنتم أيضاً حيث أكون أنا. وأنتم تعرفون الطريق إلى حيث أذهب" (يو 14: 1-4).

قال يسوع هذه الأقوال عشية آلامه. وكان الرسل لا يزالون مفتونين بسحر لفظه. فقال توما:

"إنا لا نعلم، يا رب، إلى أين نمضي، فكيف نعرف الطريق؟"

فقال يسوع: "أنا الطريق والحق والحياة... كل ما تسألون الآب باسمي فأنا أفعله ليمجد الآب في

الابن... من يحبني يحفظ كلمتي، وأبي يحبه وإليه نأتي وعنده نجعل مقامنا... أنا الكرمة

الحقيقية وأنتم الأغصان؛ من يثبت فيّ وأنا فيه يأتِ بثمر كثير، لأنكم بدوني لا تستطيعون أن

تعملوا شيئاً... إن ثبتتم فيّ وثبتت كلامي فيكم تسألون ما شئتم فيكون لكم. بهذا يتمجد أبي أن

تأتوا بثمر كثير وتكونوا لي تلاميذ.

"كما أحبني الآب كذلك أنا أحببتكم، اثبتوا في محبتي؛ إن حفظتم وصاياي ثبتتم في محبتي، كما

أني حفظت وصايا أبي وأنا ثابت في محبته. كلمتكم بهذا ليكون فرحي فيكم ويتم فرحكم" (يو

15).

هذا الخطاب بعد العشاء الأخير هو الحديث الرفيع الذي دفع فيه يسوع كل غنى قلبه، وهو

تتمة خطاب الجبل الوارد في أوائل إنجيل متى. فخطاب الجبل موجّه إلى الجموع، وخطاب بعد

العشاء موجّه إلى الرسل وحدهم. خطاب الجبل مدخل الملكوت وخطاب بعد العشاء هو

التعبير عن أقصى ما في فكر يسوع.

إن معظم الناس لا يتجاوز فهمهم للإنجيل خطاب الجبل؛ يظنونه أدب الإنجيل كله، ولا

معرفة لهم بخطاب بعد العشاء أو أنهم لا يفهمونه. أما أبناء الملكوت فيعرفون أن سرّ الملكوت

في خطاب بعد العشاء.



"أيها الأب، لقد أتت الساعة، فمجد ابنك لكي يمجدك ابنك، ويعطي - وقد قلّدته السلطان على كل بشر - الحياة الأبدية لجمع الذي أعطيتهم له. والحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي الواحد، والذي أرسلته يسوع المسيح ...

"أيها الأب القدوس، احفظ باسمك من أعطيتهم لي ليكونوا واحداً مثلما نحن واحد... لست لأجلهم فقط أصلي بل لأجل الذين يؤمنون بي عن كلامهم أيضاً، لكي يكونوا بأجمعهم واحداً؛ فكما أنك أنت، أيها الأب، فيّ وأنا فيك، فليكونوا هم أيضاً، فينا، حتى يؤمن العالم أنك أنت أرسلتني".

"لقد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني لكي يكونوا واحداً كما نحن واحد. أنا فيهم وأنت فيّ لكي يكونوا مكملين في الوحدة ويعلم العالم أنك أنت أرسلتني، وأنت أحببتهم كما أحببتني".

"أيها الأب، إن الذين أعطيتني، أريد أن يكونوا هم أيضاً حيث أكون أنا، لكي يشاهدوا المجد الذي أعطيتني، لأنك أحببتني، قبل إنشاء العالم. أيها الأب العادل، إن كان العالم لم يعرفك، فأنا قد عرفتك، وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتني. لقد عرفتهم اسمك، وسأعرفهم أيضاً، لتكون فيهم المحبة التي أحببتني، وأكون أنا فيهم" (يو17).

هوذا سر الملكوت، هو الحياة الأبدية، والحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت وحدك الإله الحقيقي، والذي أرسلته يسوع المسيح، وأن لا يكون أبناء الملكوت إلا واحداً مثلنا - فليكونوا فينا. فليكونوا معي حيث أكون - ولتكن فيهم المحبة التي أحببتني.

قريباً يبدأ مجد يسوع بالصليب. ونحن معه واحد.

"أيها الأب العادل، إن العالم لم يعرفك". أبناء الملكوت وحدهم يسمعون هذا الكلام.

\*\*\*

"محبة الأب" لتكن فيهم المحبة التي أحببتني.

"كما أحبني أبي، أحببتكم. اثبتوا في محبتي".

ما هو حب يسوع فينا؟

"يا أولادي، أنا معكم بعد زمناً يسيراً... فإني أعطيتكم وصية جديدة أن يحب بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا. بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي. الوصية التي استودعكم هي أن يحب بعضكم بعضاً".

هنا، بلغنا الغاية. فبشارة الملكوت هي أن الله أبونا، وأنه يحبنا، وأن ابنه قد أتانا ضامناً لنا محبته، وأنا واحد في حب يسوع مع الأب، ومع يسوع وفيما بيننا؛ وحب الأب هذا هو من الغزارة بحيث يعوّض عن كل ما فينا من الضعف، بشرط أن نستسلم له. أما القلوب القاسية فلن تدرك ذلك أبداً. لأن كل من يركّز كماله في ذاته لا يفتح قلبه للحب.

\*\*\*

يأتينا يسوع بعطية الحب الفائقة، وهذا الحب الإلهي ينحني على نفوسنا ليستولي على أدق حركة صالحة في إرادتنا. "لو كنت تعرفين عطية الله!" (يو 4: 10) لكن الإنسان لا يعرفها، والله ساهر ينتظرنا، كأبي الابن الشاطر، حتى يستولي على كل ما يمكن أن يكون فينا صالحاً للملكوت "من سقى أحد هؤلاء الصغار، على أنه تلميذ لي، كأس ماء بارد فقط، فالحق أقول لكم إن أجره لن يضيع" (متى 10: 42).

ثم يصف الدينونة فيقول: "حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه، تعالوا، يا مباركي أبي، رثوا الملك المعدّ لكم منذ إنشاء العالم، لأنني جعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني؛ كنت غريباً فأويتموني، وعرياناً فكسوتموني، وكنت مريضاً فعدتموني، ومحبوساً فأتيتم إليّ". فيجيبه الصديقون قائلين: "يا رب، متى عملنا هذا كله؟".

"فيقول الملك: الحق أقول لكم، إن كل ما صنعتموه إلى واحد من إخوتي هؤلاء، إلى واحد من الأصاغر فإليّ قد صنعتموه" (متى 15: 34-40).

لا حاجة أن نعرف ما نضع. فكل حركة صالحة تؤدّي إلى الحياة الأبدية. بل يذهب الحب إلى أبعد من ذلك؛ فهو يحنو على البائسين جميعاً ويضمهم إليه، على أن لا يكونوا من النائرين الغاضبين. فلم يذكر في مثل الغني ولعازر المسكين أن لعازر كان قديساً بل إنه كان فقيراً جداً، فكان هذا كافياً لكي تنقله الملائكة عند موته إلى السماء (لو 16: 22) مع أن الوصايا القاسية الأمرة بالزهد والتخلي عن الدنيا لا تزال باقية. فكأن هناك طريقين، طريق

التخلي والزهد لمن يلبون الدعوة، وطريق الرحمة لكل من عندهم رغائب صالحة أو هم صابرون على بؤسهم في هذه الحياة.

وليس يطرد من الملكوت إلا الذين يقاومون النعمة ويحسبون أنفسهم أحكم من الله، فيؤثرون رأيهم على دعوته. هؤلاء هم المتكبرون الغلاظ الأكباد.  
هذا ما نستخلصه من كلام القديس لوقا (14: 12-27).

"إذا صنعت غداء أو عشاء، فلا تدعُ أهلك، ولا إخوانك، ولا أقرانك، ولا الجيران الأغنياء، مخافة أن يدعوك هم أيضاً فتقوم بذلك مكافأتك. ولكن ادعُ، إذا ما صنعت مأدبة، المساكين، والجُدع، والعرج، والعميان، فتكون عندئذ سعيداً، إذ ليس لهم ما يكافئونك به، وتكون مكافأتك في قيامة الصديقين".

"وإذ سمع أحد المتكئين ذلك، قال طوبى لمن له نصيب في وليمة ملكوت الله! فقال له يسوع: "إنسان أقام عشاء عظيماً ودعا إليه كثيرين. وفي ساعة العشاء أرسل غلامه يقول للمدعوين، هلمّوا؛ إن كل شيء معدّ، فطفقوا جميعهم يعتذرون على نمط واحد، فقال له الأول: قد اشترت أرضاً ولا بد لي أن أذهب فأراها؛ فأرجو أن تعذرني، وقال الآخر: قد اشترت خمسة فدادين بقر؛ وهأنذا ماضٍ لأجرها؛ فأرجو أن تعذرني. وقال الآخر: قد تزوجت امرأة، ومن ثم فلا أقدر أن أجيء.

فرجع الغلام وأخبر سيده بذلك، فغضب رب البيت، وقال للغلام: اخرج سريعاً إلى الساحات وشوارع المدينة، وأت إلى هنا بالمساكين والجُدع والعميان والعرج. وقال الغلام: يا سيدي، قد قضى ما أمرت به، وبقي موضع. فقال السيد للغلام، اخرج إلى الطرق وما حول السياجات واضطرّ الناس إلى الدخول حتى يمتلئ بيتي. فإني أقول لكم، إنه لن يذوق عشائي أحد من أولئك المدعوين".

ها هم أولاء الذين يرفضون النعمة، وها هي ذي عطية الحب للمساكين.  
"وكان جموع كثيرين يواكبونه؛ فالتفت وقال لهم: إن كان أحد يأتي إليّ ولا يبغض أباه، وأمه، وبنيه، وإخوته، وأخواته بل نفسه أيضاً، فلا يستطيع أن يكون لي تلميذاً. ومن لا يحمل صليبه ويتبعني، فلا يستطيع أن يكون لي تلميذاً".

"أيها الآب القدوس، ليكونوا واحداً فينا".

إن الحب الذي يدعوننا هو من الغنى بحيث تتوراى أمامه جميع القيم البشرية، حتى ما فينا من الرغبة الطبيعية في خيرنا. ولكن لا بد لتذوق هذا الحب، وللحصول على نصيب في الملكوت، من الزهد في الدنيا ولا بدّ أن يكون هذا الزهد كلياً كزهد بني الملكوت.

هذا الكلام موجه إلى من يلبون الدعوة "من يريد أن يكون لي تلميذاً" أما جموع البائسين من المرضى، والعجز، والعميان، والمخلعين، فهؤلاء ليس لهم من حرية الفكر ما يؤهلهم للاختيار. فيحنو عليهم الآب ويضمّمهم إليه، على أن يحتملوا عذابهم وهم صابرون متواضعون. فالآب يحبهم ويحبنا جميعاً. وقد أرسل ابنه لا ليدين العالم بل ليخلص العالم. فجميع المساكين يدخلون ملكوت النعيم، ونحن أيضاً ما لم نقاوم النعمة.

ولا يبقى خارجاً إلا من يحسبون أنهم عقلاء ويعتمدون على قوتهم، ويعجبون بأنفسهم.

## الفصل الرابع

### المسيحي أمام العالم

"السلام أستودعكم، سلامي أعطيكم؛ لست أعطيكموه كما يعطيه العالم، لا تضطرب قلوبكم ولا ترتعد... لأن كان العالم أبغضكم، فاعلموا أنه قد أبغضني قلبكم. فلو كنت من العالم، لكان العالم يحب ما هو له ولكن لأنكم لستم من العالم، ولأني باختياري لكم قد أخرجتكم من العالم. لأجل ذلك يبغضكم العالم... قد حدثتكم بهذا، ليكون لكم في السلام. ففي العالم ستكونون في شدة، ولكن، لتطب نفوسكم. إني قد غلبت العالم" (يو 14: 27 و15: 18-19 و16: 33).

لن يرح يسوع، مدى حياته العامة يعارض العالم، حتى ليدعو الشيطان رئيس العالم (يوحنا 12: 31). العالم هذا المجموع المتجمد في أحكامه، المتشبع من أوهامه، المطمئن إلى حكمته. فيسوع يقاوم العالم ويقدم عليه تلاميذه.

ويعدهم لاحتمال الاضطهاد: "ليس التلميذ أفضل من المعلم" (متى 10: 24)، "فإن كانوا قد اضطهدوني، فسيضطهدونكم أيضاً" (يو 15: 20) "لكن لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولا يستطيعون أن يقتلوا النفس" (متى 10: 28).

"هأنذا مرسلكم مثل الخراف بين ذئاب؛ فكونوا حكماء كالحيات" وودعاء كالحمام. احذروا من الناس فإنهم سيسلمونكم إلى المحافل وفي مجامعهم يجلدونكم... وسيسلم الأخ أخاه للموت والأب ابنه، ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم. وتكونون مبغضين من الكل من أجل اسمي" (متى 10: 16-17 و 21-22).

يسوع ينذر تلاميذه بحياة مثل حياته مفاجئة. "فليس التلميذ أفضل من المعلم". وإذا كان المعلم قد تألم، فلا مهرب للتلميذ من الآلام، على أنه مضمون الفوز والانتصار... لا تخافوهم، "فمن اعترف بي قدام الناس، أعترف به قدام أبي الذي في السموات" (متى 10: 26-32) ثقوا، أنا غلبت العالم؛ وحيثما أكن، تكونوا".

فهو يجعل بينه وبين العالم خلافاً جذرياً؛ وإن لم يمرّ جميع التلاميذ بما أنذر لهم به من الأطوار المفجعة. ولكن هذه الأحداث – وقد حدثت، وهي تحدث أيضاً. وعلى كل حال، فالعالم يعارض يسوع، ويسوع يعارض العالم.

\*\*\*

لم يفهم الرسل، أول أمرهم، شيئاً عظيماً، فهم يتبعون، موزعين بيم الدهشة والثقة، ما يعترضهم من الشك، بسبب أقوال اليهود، وانتظارهم مملكة أرضية. ولكنهم، لما أخذوا يفكرون بعد موته، ولما قبلوا الروح القدس، استنار عقلمهم وتحول جنبهم وترددهم إلى يقين بمعزل عن الشك.

وها هوذا بولس يقول: "إذا كان الله لنا فمن علينا؟ هو الذي لم يشفق على ابنه الخاص، بل أسلمه عنا جميعاً، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء... فالمسيح الذي مات، بل بالحري قام، وهو عن يمين الله، يشفع فينا.

"فمن يفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدّة؟ أم ضيق؟ أم جوع؟ أم عري؟ أم خطر؟ أم اضطهاد؟ أم سيف؟ ... غير أنّا في هذه كلها نغلب بالذي أحبنا. فإني لوائق بأنه لا موت ولا حياة، ولا ملائكة ولا رياسات، لا حاضر ولا مستقبل ولا قوّات، لا علوّ ولا عمق، ولا خليقة أخرى أية كانت، تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا" (راجع رومية 8: 35-39).

هوذا الجواب إلى الإنجيل. وثم نص آخر مشهور يبيّن، بلهجة قاهرة وجراحة مثيرة، هذا الخلاف ما بين المسيحي والعالم: "إن المسيح أرسلني لأبشّر بالإنجيل؛ ولكن، لا بحكمة الكلام، لئلا يُبطلَ صليب المسيح. فإن كلام الصليب عند الهالكين جهالة. وأما عندنا نحن المخلصين، فقدرة الله. لأنه قد كتب "سأبيد حكمة الحكماء، وأرذل فهم الفهماء" (أشعيا 29: 14) فأين الحكيم؟ أين المثقف؟ أين محجاج هذا الدهر؟ أولم يجهل الله حكمة هذا العالم؟ فإذا أن العالم، بحكمته، لم يعرف الله في حكمة الله، حسُن لدى الله أن يخلص المؤمنين، بجهالة الكرازة. وفيما اليهود يسألون آيات، واليونانيون يطلبون حكمة، نكرز نحن، بمسيح مصلوب، عثرة لليهود وجهالة للأمم؛ أما للمدعوين، يهوداً ويونانيون فهو مسيح، قدرة الله وحكمة الله.

لأن ما هو جهالة عند الله أحكم من الناس، وما هو ضعف عند الله أقوى من الناس" (1 كو 1: 17-25).

تلك حماسة المسيحيين الأولين المدهشة. إذ اكتشف الإنسان أنه ابن الله. "فإن جميع الذين يقتادهم روح الله هم أبناء الله". ذلك شعتر حميم بالبنوة المعبودة. "لم تأخذوا روح العبودية، بل أخذتم روح التبني الذي يشهد مع روحنا بأننا أولاد الله".

أولاد، فإذن ورثة أيضاً؛ ورثة الله، ووارثون مع المسيح، إن كنا نتألم معه" (روما 8: 14-18).  
وصورة العذاب لم تكن لتوهن الرسول، فيواصل قوله: "وإني لأحسب أن آلام هذا الدهر الحاضر لا يمكن أن تقابل بالمجد المزمع أن يتجلى لنا".

فالمسيحي، بكونه ابن الله ووارثاً مع المسيح، يستطيع أن يقتحم العالم ويتابع فيه طريقه الخاص. وما من سعادة تداني سعادته، فأمجاد العالم جميعها كالظلال إزاء المجد الذي يحمله في ذاته.

## الفصل الخامس

### من أراد أن يكون لي تلميذاً...

لقد تبدلت الحياة، وتغيّر كل شيء، على حين لم يتغيّر شيء.

قد تغيّر كل شيء، لأن معنى الحياة لم يبقَ كما كان. فقد تخلل الحياة حب الآب وحوّلها من حال إلى حال. كالمنظر الطبيعي، وإن بدا، تحت المطر، وفي الظلام، ما هو تحت الشمس فشتان ما بين المشهدين.

ومن لم يختبر في حياته، وقد وصل ليلاً إلى بلد غريب، أنه رأى في الظلام أشباحاً لم يميزها؛ وعندما طلع النهار وأشرق الشمس، وعاود النظر إليها، رأى رياضاً نضرة، ورأى جبلاً وأنهاراً بهجة للعيون؟!

فمن استمع إلى يسوع وتنبّه للحياة الإلهية، كان نظير هذا المسافر، يبدو له العالم جديداً، ويسمع كل شيء يحدثه عن حب الله: الطبيعة، والبشر، وروحه وأعصابه، وكل شيء يفتنه، لأن كل شيء يعرب له عن الحب، فيشعر أنه سيد العالم، "فسلام الله الذي يفوق كل فهم" (فيلبي 4: 7) يملأ قلبه، وفرح السماء يسكن روحه ويحسّ أنه "يستطيع كل شيء في الذي يقويه" (فيلبي 4: 13)، ويرى من الطبيعي أن يقول الرسول لأهل كورنثيه: "إذا أكلتم، أو شربتم، ومهما عملتم، فاعملوا كل شيء لمجد الله" (1 كور 10: 31) هذا ربيع النفس، فلم يبق العالم كما كان، ولا النفس كما كانت.

\*\*\*

على حين بقي كل شيء مكانه. فالعالم لم يتغيّر، ولا الناس تغيروا، ولا الشخص نفسه تغيّر، فهو محتاج كما كان من قبل إلى الطعام والشراب، وإلى النوم والكسوة، والسكنى. وعليه أن يكسب معاشه، ويمارس مهنته، ويرعى أسرته، ويربي أولاده. فحياته الطبيعية لا تزال تسير على ما تقتضيه طبيعة الإنسان الاجتماعية... ولكن هذا المهتمدي يشعر أن حياته المادية نفسها ينبغي أن تتغير تغيّر حياته الروحية. فهو يتساءل: "ماذا عليّ الآن أن أعمل وأنا مسيحي؟" فإذا كانت حياته مستقيمة، يقال له: "استمر على ما أنت عليه. مارس وظيفتك، أحب زوجك، وربّ أولادك".



ولكنه يقول قد قمت بهذا كله، كما قال الشاب الغني في الإنجيل؛ فنظر إليه يسوع وأحبه. إن يسوع يحب من يأتون إليه، وبعد أن يكونوا قد سمعوا كلامه، وباتوا لا يقدرّون أن يحيوا كما كانوا يحيون من قبل.

فيقول له حينئذ: "أمر واحد ينقصك، امض، وبع كل مالك، وأعطه للمساكين. فيكون لك كنز في السماء؛ ثم تعال اتبعني" (مرقس 10: 21).

هذا النص قد اقتضى شروحات كثيرة، إذ أنه يجعلنا نصب شريعة تأمر بالزهد والتخلي العام. ولا يسعنا أن نفهم الحياة المسيحية فهماً صحيحاً ما لم نوضّح كيف تغلغل فيها هذا التخلي العام.

فرواية الشاب الغني واردة بنصها في أناجيل متى ولوقا ومرقس، مع اختلاف يسير في بعض الكلمات. فمتى يتكلم عن شاب ومرقس يقول "إن واحداً" أما لوقا فيقول: "إن رئيساً".

فلما قال الشاب إن حفظ الوصايا منذ صغره، قال له يسوع، بحسب رواية القديس متى: "إذا شئت أن تكون كاملاً، فامض وبع ما لك... إلخ" أما بحسب رواية مرقس ولوقا، فإن يسوع قد قال له: "أمر واحد ينقصك". فاتفق مرقس ولوقا يحملنا على الأخذ بقولهما. غير أن الاختلاف، بين النصوص في رواية تتضمن حادثاً واحداً ومعلومات واحدة، يدل على أن الرسل ما كانوا ليعلقوا أهمية كبرى على صيغة الكلام ولا على الشخص عينه.

ولذلك اعتمد المفسرون، مع الأيام على عبارة متى: "إذا شئت أن تكون كاملاً..." لكي يؤسسوا عليها روحية كاملة في الحياة المسيحية تناقض خمسين نصّاً إنجيلياً. فاتخذت هذه العبارة مكانة بالغة الأهمية في التعليم الأدبي.

فاعتبروا أن يسوع بقوله: "إن شئت أن تكون كاملاً"، كان يريد أن يميّز درجتين أو منطقتين في الحياة الروحية: درجة الواجب أو الإلزام المفروضة في الشريعة، ودرجة الكمال الاختيارية المعروضة على من يريدون أن يتقيدوا بها. فكلمة "إذا شئت أن تكون كاملاً" تيسّر لنا أن نفسّر بهذا المعنى جميع النصوص التي ناقضها بها يسوع، كقوله: "من لا يترك كل شيء ويتبعني، فلا يستحق أن يكون لي تلميذاً".

ولكن في سياق الرواية، عند متى والرسولين الآخرين، ما يخالف هذا التفسير. فقد ذكروا أن الشاب – الذي يقوم بكل واجبه كما قيل – قد مضى حزيناً لأنه كان ذا مال كثير. فقال يسوع: "الحق، الحق أقول لكم إنه ليعسر على الغنى أن يدخل ملكوت السماء؛ بل أقول لكم، إنه لأسهل أن يدخل جمل في ثقب الإبرة من أن يدخل غنى في ملكوت السموات" (متى 19: 22-24). فلو كان الشاب قد قام بكل واجبه، لكان كلام يسوع هنا خالياً من المعنى؛ إذ لا يعقل أن يحرم من دخول ملكوت السموات من يقوم بكل ما يجب عليه.

\*\*\*

وفي الإنجيل نسان آخران متوازيان يمهدان لنا السبيل إلى تفسير يختلف قليلاً، ولكنه يتفق وتعليم يسوع كله.

والمقصود هنا ما جاء فيما أوردناه من نص متى ولوقا في التخلي عن الأخوة البشرية. قال متى: "من أحب أباً أو أمّاً أكثر مني فلا يستحقني" (10: 37) وكتب لوقا: "ما يأتي إليّ ولا يبغض أباه وأمه فلا يستطيع أن يكون لي تلميذاً" (14: 26). فهذه الآيات وما أشبهها تبيح لنا أن نفترض أنها كانت تتردد كثيراً على لسان يسوع، وتختلف شدة باختلاف التعبيرات والألفاظ التي كان يستعملها: "من أحب أكثر ... من لا يبغض" ... فلم يكن يسوع يعبر عنها تعبيراً متشابهاً ولا كان الإنجيليون يعلقون على اللفظ كبير أهمية. فيظهر لنا أن أصح تفسير لها أن يسوع يتطلب منا أن نؤثره على حب كل شيء وأن نكون مستعدين أن نضحى من أجله بأي شيء، حتى حب الوالدين والزوجة والأولاد وبنفسنا ذاتها. أما أن نكون مستعدين للتضحية بأي خير فهذا لا يذهب بنا إلى وجوب التضحية واقعياً كل حين.

\*\*\*

هذا التفسير السابق يثبت مسلك يسوع العملي. لقد أشرت في الصفحات السابقة إلى أن المعلم الإلهي لم يكن ليهتم بما يخص نظام الحياة الطبيعي، ولا كان يتجنب الكلام فقط عن الشؤون الاجتماعية، والحياة المهنية والعائلية، بل

كان إذا حاول أحد أن يحمله على معالجة هذه الأمور، يأبى، وقد يرفض كل الرفض، كما حدث لمن كان يريد أن يمضي ويدفن أباه، ومن طلب منه إلزام أخيه بأن يقاسمه الميراث. أما فيما يخص أتباعه فهو يفتح ذراعيه لمن يأتي إليه.

على حين أنه لم يكن يؤثم أي عمل دنيوي كان، إذا كان سائراً على نهج الأمور الطبيعية. فهو يمدح إيمان قائد المائة، ولا يلوم حياته الجندية. ويثني على زكا، ولا يدعو إلى ترك مهنته، ويغتنم فرصة جلوسه إلى مائدته لينصحه أن يدعو الفقراء إلى طعامه، دون أن يكلفه أن يوزع عليهم ماله. وفي أمثاله، كمثل الابن الشاطر ومثل الوليمة، يذكر أشخاصاً سادة وأغنياء، فلا يؤاخذهم على شيء، بل قد يتخذهم مثلاً للآب السماوي.

وإذا تحدث عن العبيد، رأى من الواجب أن يخلصوا أسيادهم؛ وإن تكلم عن الأولاد وجد لزاماً أن يحترموا والديهم، وإن صور الغنيّ الشرير في الحجيم، فليس لأنه غني، ولكن لأنه كان غنياً شريراً، فهو، إذن، يتصور أغنياء صالحين، ولا يلزم كل غني أن يوزع أمواله جميعها. وأحب يسوع أمه حباً رقيقاً، وما تركها إلا على قدر ما كانت تقتضيه خدمة الأب؛ فلم يبغضها، ولا هجرها، وقد كانت، ساعة آلامه، واقفة بالقرب منه. وكان له أحياء لم يكن يخفي حبه لهم، فبكى على قبر لعازر (يوحنا 11: 35) وأحب وطنه فانتحب على أورشليم (متى 23: 37 ولوقا 13: 34).

أما قوله "من شربك على خدك، فحوّل له الآخر" أو "من سألك ثوبك، فاترك له رداءك"، فهذه ليست، بدون شك، وصية عامة، لأن يسوع نفسه لم يتقيد بها؛ وقد أجاب بشدة من كانوا يهينونه. والرسل اعترضوا على ما كانوا يلقونه من سوء المعاملة. فبولس لجأ إلى السياسة ليتفلت من المطاردة، ويمضي إلى قيصر، بصفته مواطناً رومانياً، حينما طلب اليهود تسليمه إلى محاكمهم.

فهذا القسم جميعه من تعليم يسوع. إنما كانت الغاية منه رسم روحانيته – أي الاستعداد الروحي الذي ينتظره المعلم من تلميذه. يجب على المسيحي أن يكون مستعداً، أن يعمل هذا كله، إذا ما اقتضته خدمة الله؛ ولكن قد يحدث ألا تقتضيه. فخدمة الله في ترتيب الأمور العادية لا

تطلب من الزوج أن يفارق زوجته، ولا تطلب من الوالدين أن يتركوا أولادهم، ولكن ذلك قد يحدث، وقد حدث. فعلى المسيحي أن يكون مستعداً.

فالشباب الغني لم يكن مستعداً، فامتحنه يسوع، وهياً له فرصة تتمناها كل نفس كبيرة، لتظهر مدى ما تستطيعه من السخاء. فأضاع الفرصة، ودلّ على تعلقه بالمال من أجل المال. ولم تكن أمواله في نظره وسائل لخدمة الله بل لخدمته هو نفسه.

لهذا، يرثي يسوع لحال الأغنياء، إذ يصعب على الغني أن يكون مستعداً لكل شيء متى كان عليه أن يخسر شيئاً، فخيرات الدنيا تعلق قلبه في الدنيا. وهل يرقى إلى الله من كان مربوطاً في الأرض؟

أما زكّا، فكان غنياً، ولكنه دلّ أنه لم يكن متعلقاً بثروته، فكفاه أن نزل يسوع عنده حتى أعطى الفقراء نصف أمواله. ويسوع لم يطلب منه مزيداً، ولا بحث في الأرقام بل حكم على استعداد القلب، وتلقائية السلوك: "اليوم حصل الخلاص لهذا البيت".

\*\*\*

التخلي هو أن يكون المسيحي مستعداً، غير مرتبط بشيء، بل متهيئاً لكل شيء، متحرراً من كل القيم البشرية، مستعداً لفقد ذويه، وفقد وطنه، وفقد ماله، إذا ما اقتضته ذلك خدمة المسيح.

ولقد عصرنا هذا عدداً كبيراً من مسيحيين أغنياء ومعتبرين، كانوا يشغلون مراتب اجتماعية عالية، من رجال السياسة، ومن رؤساء الأعمال، والعلماء قد سفكوا دمهم وضحّوا بثروتهم، وهجروا أوطانهم لأنهم كاثوليكيون. وقد كانوا في موقف الشاب الغني، ذوي مال وجاه. وكانوا قادرين أن يجمعوا بين نظام يهدم روح شعبيهم وبين حفظ خيراتهم الزمنية، ولكنهم، إذ أتاحت لهم الفرصة، اختاروا أن يظهروا أنهم كانوا للمسيح، ودلت سرعة قبولهم للتضحية على مقدار استعدادهم، وعلى فرحهم باغتنام هذه الفرصة ليبرهنوا عن تعلقهم بالمسيح.

مستعدون: لا يكون المسيحي مسيحياً إلا إذا كان مستعداً، مستعداً لكل شيء. "يا معلم، ماذا تريد أن أصنع؟" - ثم يصنع.

ما من أحد عاش زماناً في الكنيسة ولم يشهد أحوالاً تحققت فيها حرفياً وصية من وصايا الرب في التخلي. فهناك أولاد طردهم أبائهم لأنهم كاثوليكيون؛ ومهتدون فارقههم أزواجهم وأولادهم، وبنات هربن من بيوتهن ليحتفظن بإيمانهن، ومهتدون آخرون أنكروهم ذوهم، فاضطروا إلى الرحيل عن ديارهم. وأولئك الرعاة الإنجليكان الراجعون إلى الكنيسة الكاثوليكية، وهم لا يستطيعون أن يصيروا كهنة كاثوليكين، لأنهم متزوجون، يمسون، لا مورد لهم للرزق، ويرضون ألا يكونوا شيئاً، بعد أن كانوا في كنيستهم مكرّمين محترمين. وحسبهم أنهم وجدوا المسيح في الكنيسة الكاثوليكية.

ولكن، كم بجانب هؤلاء من مثل الشاب الغني، لا يقدمون على التضحية، ويطلون مترددين، أمام دعوة المعلم، ولا يبلغون إلى بذل الذات، لأنهم لا يقوون على التخلي.

\*\*\*

ثم إن يسوع لا يطلب من تلاميذه جميعاً تضحيات قاطعة. فلم يكلف، مدة حياته بيننا، غير رسله، أن يتخلّوا مادياً عن كل شيء. أما الباقون فقد تركهم وشأنهم، غير أن الرسل، في نظر المسيحيين، كانوا المفضّلين.

لكن، قلّ ما بيننا من لا يرى نفسه، بين حبن وآخر، عرضة لتضحية قاطعة. فهذا زوج فقد زوجته، وهذه زوجة تفقد زوجها شاباً، أو والدان يفقدان ولدهما، أو غني يخسر ثروته، أو إنسان آخر كان في عمله ناحجاً، ثم أخفق إخفاقاً قاطعاً، أو شاب وشابة ابتليا بحب تعس، أو رجل أو امرأة يمرضان وهما في ريعان الشباب ... وجميع ما نشاهده كل يوم.

ففي هذه الأحوال، يُعرف المسيحيون الحقيقيون. فالمسيحي الحقيقي مستعدّ؛ نعم، هو سيد ماله، ينعم به ولكنه لا يعلّق به قلبه، لأن قلبه حيث هو كنزه. وكنزه حيث لا دود يقرض، ولا صداً يفسد. فهو يقبل راضياً، ولا يكتفي بالقبول، بل كما كان أيوب في العهد القديم يقول: "الرب أعطى والرب أخذ؛ فليكن اسم الرب مباركاً". ويبلغ بالمسيحي استعداداه إلى أبعد الحدود، لأنه استعداد إنسان محب، ليس إلهه يهوه رب الجنود، بل هو الأب السماوي. فإن يتألم لخسرانه ما يحبه، فهو يحب الألم لأنه يطهره.

قد يرتجف الإنسان من قبول التضحية، ومن حسابها هدية حبية – فإن موت زوج عزيز، أو زوجة، أو ولد، قبل الأوان هو حدث ضد الطبيعة، لأن الإنسان لم يوجد لكي يموت في العشرين من عمره. فالرضى بهذا التخلي ضرب من قسوة القلب. ومع ذلك ...

إن الله ينزعه منا ليضمه إليه – وهذا ما نرده عادة قائلين إن الحزن ليس على الميت – فإذن؟ إذا كنا مقتنعين أن نكون مع يسوع، وإذا كنا واثقين بأن لنا في السماء أباً لا يسمح بسقوط شعرة من رؤوسنا، إلا لخيرنا، فماذا بقي؟ يقي أننا كنا نعتقد أن خيرنا، وسعادتنا، وخدمة ربنا في أن نكون متزوجين، والمسيح يطلب منا أن نعيش بلا زواج؛ وكنا نعتقد أن خدمة الله في أن نحسن استعمال ما لنا، والمسيح يطلب منا أن نحيا فقراء؛ وكنا نعتقد أن خدمة الله في أن نعمل ونحزن في صحة جيدة، والمسيح يطلب منا أن نصبر على ما يحل بنا من الأمراض.

وقد نرى ضرباً من التخلي أدق مما تقدم.

فهؤلاء مسيحيون أتقياء يريدون أن يتكرسوا للمسيح في الحالة الرهبانية أو في الحياة الكهنوتية، ولا غاية لهم إلا أن يكونوا له، ولكنهم يلتزمون أن يتخذوا عن هذه الحالة لأجله، لأنه لا يريد أن يخدموه فيها.

فإذا كانوا حقاً مستعدين، وإذا كانوا لا يرغبون إلا أن يتبعوا يسوع، ولا يحبون شيئاً سواه، فكيف لا يرضون ولا يكونون سعداء، حين يقدم لهم فرصة يحققون فيها تسليمهم المطلق لمشيئته؟

\*\*\*

كم من المسيحيين يحققون هذه الاستعدادات التي يطلبها يسوع من تلاميذه؟

إننا لنسمع كل يوم مثل هذا الاعتراض:

"لا يمكن أن يكون الله محباً، وقد حرمني سعادتي، على حين أنني لم أصنع في حياتي إلا الخير".

"لم أصنع إلا الخير": الفريسي.

"الله حرمني من سعادتي": الشاب الغني.

كلا، يا مسكين، بل لتجدن سعادتك، في هذا الحرمان.

وعندما نرى قلة عدد من يفهم من المسيحيين، ويقبل مشيئة الله، ندرك حدة أقوال يسوع، ونفهم أنه يقدم هذه الحالات النادرة كوصايا مطلقة، لأنه يريد أن يسترعى الذهن، ويحمل على التفكير، ويجبر على الاختيار، ولو قصداً، إن لم يكن فعلاً.

فأول ما يجب على المسيحي، متى كان في سعادة كبرى، أن يطرح سعادته بين يدي المعلم الإلهي وأن يكون مستعداً لأن يفقدها إذا اقتضت خدمة الله ذلك.

لا يكون التخلي في الأمور الكبيرة وحدها، بل يكون في كل شيء، وفي كل وقت: في الحر والبرد، في الصحو والمطر في النجاح والفشل، وفي التساهل مع الآخرين في مراعاة أذواقهم واحترام آرائهم، وإتيان ما يسرهم.

"من سألك أن تماشيه ألف خطوة، فماشه فوقها ألفين". ومثل القديس فرنسيس دي سال "لا تطلب شيئاً، ولا ترفض شيئاً" وارضَ بكل شيء. مبتدئاً برضائك عن نفسك؛ لا تدع بما ليس فيك من المناقب، ولا تأسف على حرمانك مما عند غيرك. ولا تفتخر بما عندك وليس عند سواك. ولكن اسأل لماذا قبلت ما قبلت؟ فأني شيء لنا ولم نقبله؟

"وعلى كل حال، وفي كل وقت، اشكروا الله الأب، باسم ربنا يسوع المسيح" (أفس 5: 20). أن نكون مستعدين، لا يعني أن نكون بلا شعور. فيسوع شعر بالآلام حتى النزح. والآباء عليهم أن يحبوا أبناءهم، والأزواج نساءهم؛ وهذا حب شرعه الله نفسه؛ فمن فجع بأحد ممن هو مرتبط بهم ارتباطاً شرعياً، فمن الطبيعي أن يحزن ويتألم. ومن لا يتألم لمثل هذا، فهو زاهد غير مكترث؛ والزهد في هذه الحال جريمة من زوج نحو زوجه، ومن زوجة نحو زوجها، ومن والدين نحو أولادهم، ومن وطني نحو وطنه. فيسوع يطلب من تلاميذه أن يحبوه فوق كل شيء، لأنه هو الذي فوق كل شيء، والذي أمام كماله يختفي كل كمال؛ ولكن حبه لا يلاشي الشعور بل يهذب ويمحصه. ونحن من أجله نتخلى عن ذاتنا، ونظهر هذا التخلي بقبول ما ينزل بنا من الآلام، عندما نفاجاً بما يدمي طبيعتنا من قطع أحد تلك الربط المشروعة التي تربطنا بمن نحبهم.

\*\*\*

مستعدون أن نستسلم، بلا مقاومة، لحب الله، وكلا الأمرين يظهران في الأمور الصغيرة أكثر مما يظهران في الأمور الكبيرة. لأننا نتلقى في الأمور الصغيرة دروس الحياة: "من كان أميناً في الصغائر، كان أميناً في الكبائر" (لو 16: 10) فالأمور الصغيرة يومية، والكبيرة لا تحدث إلا اتفاقاً.

الأمور الصغيرة تحدث كل يوم، أما الكبيرة فلا تحدث إلا مصادفة، حتى من يتخلى لأجل المسيح عن أهله، ووطنه وعن مهنته، فإنه لا يلبث أن يعود إلى حياة يومية مؤلفة من أمور صغيرة، فهو يستقر في وطن آخر، بين قوم آخرين؛ ويتعاطى أعمالاً، ويخالط بشراً، فتعود حياته وأحداثها الرتيبة إلى ما كانت عليه من قبل. لقد قام مرةً بتضحية كبرى، ثم صار عليه بعدها أن يكون مستعداً، طوال ما بقى له من السنين.

أما إذا كانت التضحية بالحياة، فإنها تكون أمراً خارق العادة يتوج الحياة كلها، والشهيد – إذ المقصود هنا من يموت من أجل المسيح – فإنه يدلّ بموته على مكانة نفسه من السموّ. ومهما يكن فالتضحيات العظيمة لا تكون إلا استثنائية. والمسيح نفسه قد عاش ثلاثين سنة عيشة كانت ظاهرها عادية. والسنوات الثلاث من حياته العامة تعاقبت أيامها ما بين الفوز والمقاومة، كما يحدث لكل من يأتي بأفكار جديدة. ثم نزلت به الآلام فكَلَّت حياته، وأظهرت للملأ ما كان فيه من العظمة، وقد تمّ ذلك بين عشية وضحاها.

أما التضحيات التي لا تنتهي بالموت، فأصعب ما فيها، أحياناً طول مدتها. فمن تخلى عن ماله، وعن مركزه الاجتماعي من أجل المسيح، فقد يقوم بذلك بلا مشقة، غير أنه متى رأى نفسه بعد ذلك منتقصاً منحطاً طول حياته، فقد يمتعض ويحتاج إلى تخليٍّ أشق من تخليه الأول، ليقبل ما يتجرعه يومياً من المرائر، ولا سيما إذا ابتلى بمرض طويل، وصار لا يدرى متى يشفى، أو هل يشفى.

\*\*\*

إن ما يطلبه يسوع هو الاستعداد الروحي، لا الانقلاب المادي في الحياة. فإذا كنا نصنع الشر، وجب أن نترك صنعه. "من كان سارقاً، فلا يسرق بعد. بل فليكدّ عاملاً بيديه ما هو صالح حتى يكون له ما يشرك به المحتاج" (أفسس 4: 28).



فكلام الرسول نفسه يدل على أنه لا ينتظر من المؤمنين أن يتركوا العالم، ويعيشوا عيشة خاصة، بل أن يعيشوا عيشة روحية في أي حالة كانوا.

وإذا لم يكن المسيحي متزوجاً، فعليه أن يختار إما الزوج وإما التبتل، للتخصص في خدمة الله. وقد أظهر يسوع فضل البتولية على الزواج في (متى 19: 12). فمن استطاع أن يصون نفسه من أجل ملكوت الله، فليفعل.

فالزواج والتبتل كلاهما في خدمة الله، وللمسيحي أن يختار ما يشاء. وثمّ أمور أخرى أقل أهمية تعترضه في كل مرحلة من مراحل حياته؛ ولكن الأمر المهم الأوحى أن تظل النفس متجهة نحو المسيح.

\*\*\*

فالمسيحي، إذن، إنسان مستسلم، لا استسلاماً سلبياً، على طريقة الرواقيين والبوذيين، بل استسلاماً هو ثمرة حب عظيم؛ وما التخلي في الأصل إلا مقدمة؛ إذ أن موضوع الوحي المسيحي هو حب الأب، ويسوع رسول هذا الحب، والدليل عليه، وواسطته؛ وهو لا يدعونا إلى التخلي فحسب، بل إلى إتباعه؛ فما التخلي إلا وسيلة إلى العطاء الكامل.

ويسوع لا يريد التقسيم في الحب، لأن الحب الإلهي حب غيور، وهو من الطهر والسمو بحيث لا يمكن أي يدانيه أي حب آخر. ثم إن يسوع لا يقبل من التلاميذ إلا من وهبوا أنفسهم كلها؛ فألى هذا تنتهي الدعوة المسيحية: إلى العطاء، لا إلى التخلي.

ولست تبندئ بالتخلي لكي تعطي ذاتك فيما بعد: "من أراد أن يكون لي تلميذاً..." ها هي ذي المسألة، أن تكون تلميذاً. إنك تتخلي، عندما تهب نفسك. ولكنك لا تهب نفسك حقاً إلا إذا شملت هبتك التخلي. فلست تهب نفسك، عندما تحتفظ بها؛ ولا تهب نفسك، عندما تعطي شيئاً وتحتفظ بشيء آخر في الوقت نفسه.

"أيها المعلم، أريد أن أتبعك، لأنني أرى اتباعك شيئاً جميلاً. ولكن بمّ ينبغي أن أضحي في سبيل ذلك؟ أيها المعلم، أريد أن أتبعك، ولكن، لا تطلب من هذا الأمر، ولا ذاك؛ أريد أن أعطي شيئاً ولكن، يلزم أن أعرف، قبل أن أخاطر، إلى أين تبلغ بي".  
كلا، لا يريد يسوع تلاميذه من هؤلاء الباعة الجوالين.

لقد يطلب كل شيء، وقد لا يطلب شيئاً. إنه يطلب أن تكون مستعداً لكل شيء. فالتلميذ الحقيقي إن لم يطلب منه شيء، فإنه يحزن من عدم عطائه شيئاً، ويشعر أن استعداده للعطاء لا يكفي، بل يجب عليه أن يعطي فعلاً.

وهناك من هم على أهبة الاهتداء، يسألون: "ما عسى هذا أن يكلفني؟" فأقول له: "كل شيء، لا شيء، لا أدري، لا أدري ما يجري لك، متى صرت مسيحياً، لا أدري ما عسى أن يطلبه المعلم منك. فإن صرت مسيحياً، فإنك تجازف بنفسك كل المجازفة".

لا تدري ما يطلب منك. قد يطلب من واحد أكثر، ومن آخر أقل، ومن ثالث، لا يطلب شيئاً، لكنه يطلب من الجميع أن يكونوا مستعدين.

لا أهمية لما تهبه، ما دمت مستعداً للعطاء. ولكن ينبغي أن تكون مستعداً، ومتى كنت كذلك فإنك لا تسأل، ولا تشارط.

وقف زكا، أمام يسوع وقال: "هأنذا، يا سيدي، أعطي المساكين نصف أموالي؛ وإن كنت قد ظلمت أحداً في شيء فإنني أردّ أربعة أضعاف". إنا نشعر أن زكا كان مستعداً أن يعطي كل أمواله، لو أن يسوع تكلم. ولكنه لم يقل شيئاً. فسواه عنده أعطى النصف، أم الربع، أم الثلثين. الأهمية كلها في كرم النفس. فأن يسوع أعجبتة حمية زكا فضمه إلى تلاميذه.

## الفصل السادس

### الحياة الداخلية

الحياة المسيحية هي حالة روحية. فإذا كنت مسيحياً، فما ذلك لتفعل هذا الفعل أو ذاك – فالمسيحي يحضر القداس يوم الأحد، ويحفظ وصايا الله، ولكن ليس هذا كافياً. من كان مسيحياً، فهو مستسلم للمسيح.

حالة روحية: الحالة الروحية شيء داخلي، ولهذا فالحياة المسيحية هي حياة داخلية.

\*\*\*

إذا كان المقصود أن نتبع يسوع، فعلينا أن نعرف من هو يسوع. ولا يكفي أن نراه مرة، بل ينبغي أن يكون نصب عيوننا، في كل حين.

لم يكن زكا متعلقاً كثيراً بأمواله، ولم بخطر بباله قط أن يتخلى عنها، ولكنه قد فكّر فيها، عندما رأى يسوع في منزله، ونحن يجب أن نرى يسوع عندنا حتى نهب له نفسنا.

غير أننا لا يمكننا أن نراه حسياً عندنا كما رآه زكا في داره إنما نجده في الإنجيل، وفي القربان، ونجده في الصلاة. فحضور يسوع في ذهننا، وتركه يستولي على قلبنا ذلك شأن الحياة الداخلية.

وأن نرى أن لا خير يكون إذا كان ضد الخير، وأن نرى أن المسيح هو الخير، وأن نرى أن لا قيمة لشيء خارج المسيح، وأن كل شيء يستمدّ منه معناه، وأن نرى كل هذا، تلقائياً، في كل شيء وفي كل حين، ذلك دليل أن فكرنا مشغول به. وهذه هي الحياة الداخلية.

ليس المقصود أن نصنع هذا أو ذاك. إن في العالم آداباً للسلوك ينبغي للمسيحيين أن يتقيدوا بها. ولكن من كان مسيحياً لا يقتصر عليها. فالضرورة له أن يؤخذ وأن يجرفه تيار الحب. وأن يحيا في الحب، وليس عليه من أجل هذا أن يأتي هذا العمل أو سواه فكل عمل يمكنه أن يعبر عن الحب، لأن الحب استعداد في النفس يتكون في الحياة الداخلية. والحب يكون باطلاً إن لم تطابقه الأفعال.

\*\*\*

المسيحي إنسان يحمل سرّاً. يشع من أفعاله جميعها ومن حياته جميعها نور الحياة الداخلية. ولكن هذه الحياة خفية، يرى الناس إشعاعها ولا يرون مركز الإشعاع. هي حياة داخلية: "ملكوت الله في داخلكم" فالمسيحي ليس وحده. فحياته مثنوية، يحيا ومعلماً يفوق حبه كل وصف.

\*\*\*

لما كان يسوع على الأرض، كان الرسل يشاهدونه، وكانوا قليلين، يسايرونه ويستمعون إلى تعليمه أينما علّم فاستولى على عقولهم وقلوبهم، ولم يبرح ... ونحن ينبغي لنا، بكوننا مسيحيين، أن نكون نظيرهم، تحت سيكرة يسوع، بحيث نستوحي من فكره ومن إرادته وحبه جميع أفعالنا. وهذا يوجب علينا أن نكون دائماً معه وعلى اتصال به. ولن نكون مسيحيين حقيقيين، ما لم تكن حياتنا الداخلية حية، مركزة على المسيح. فالمسيحي من يسير ونُصبَ عينه رؤيا الرب. غير أنّ هذا لا يتم عفواً. ولا يكفي أن نلمح هذه الرؤيا مرة، يوم ارتدادنا. فقد تزول الرؤيا سريعاً. لأن يسوع لا يفرض نفسه على عيوننا، بل على عيوننا أن تتجه دائماً صوبه.

\*\*\*

وكيف يتم ذلك؟ يتم كما يتفق. ولكن المهم أن يتم. إن الروحيين ما برحوا، منذ بدء المسيحية، يبحثون عن أفضل الوسائل للاتحاد بالمسيح. فكتبوا في ذلك ألوفاً من المجلدات، وعرضوا طرائق مختلفة. وكوّنوا مدارس... فجميع ذلك حسن، لا بأس فيه، على أن يؤدي إلى الغاية. لكن هناك أمراً جوهرياً، وهو أن يكون يسوع مركز الحياة الداخلية، وأن نبلغ به إلى حب الأب، وبالحب إلى الاتحاد بالله. يمكننا أن نتصور حياة داخلية مركزة على كمال الله وعلى عظمته كما تصورها بعض المؤلفين الروحيين. وهذه الحياة لا تتعارض والمسيحية ولكنها غير خاصة بها. فهناك متصوفون من اليهود والمسلمين يمارسون هذه الحياة نظيرنا.

ولنا أن نتصور أيضاً حياة داخلية مخصصة بالتأمل في الفضائل، وبالتحليل النفسي، ومراقبة الذات للوصول إلى الكمال.

وهذه الطريقة ليست مسيحية فقط، فإننا نجدتها عند الحكماء في جميع الأديان. أما ما هو خاص بالمسيحي، فليس أن يعرف أن الله موجود، وأنه كامل، وسامٍ، ودائم، بل أن يعرف أن الله أبونا. وليس أن نطلب الكمال، ولكن بأن نعرف أن يسوع قد أتانا ببشارة الحب الإلهي، وبأن هذا الحب يحيا فينا، وأن علينا أن نحب جميع البشر إخواننا في حب المسيح الذي يحيا فينا.

من كان مسيحياً يجب أن يكون كالمسيح، لا بأفعاله المادية، بل بالدافع إليها، مما يسترعي الاتحاد الفعلي بالمسيح، والتأمل الدائم بتعليمه، والنظر إليه كل حين، ليكون وإياه روحاً واحداً كما يقول القديس بولس في رسالته إلى الغلاطيين: "لست أن حياً بعد، بل هو المسيح، يحيا في" (غلا 2: 20) وفي رسالته إلى الفيلبيين (1: 21) "حياتي هي المسيح".

\*\*\*

الحياة المسيحية، قبل كل شيء، حياة داخلية، حياة أنس بالله، في صميم الروح، بواسطة المسيح. وما هي مثل أي حياة داخلية، هي حياة داخلية خاصة، روحها المسيح، وجوها الحب الإلهي.

ثم إن المسيحي ليس له أن يتهاون في التهذيب الخلقي والآداب الطبيعية؛ فإنها أركان الحياة الإلهية وأساسها. غير أن الحياة المسيحية تتجاوز الأدب الطبيعي والزهد البسيط كما تتجاوز المعرفة بالسمو الإلهي، وهي لا تضادها بل تقتضيها، كما يقتضي الجبل وجود السهل. لكن من تنسّم ريح القمم شعر بحياة أخرى.

## الفصل السابع

### المسيحي في العالم

يعيش المسيحي وسط العالم، وعليه أن يحمل في العالم محبة المسيح. وبمّ يمكن أن توجي إليه المحبة؟

قد يمكن أن توجي إليه بجميع ضروب الأعمال.

يقول المسيح: "يعرف الناس أنكم تلاميذي، إذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً كما أحببتكم" وفي المحبة غنى. أحبّ وافعل ما يوجي به الحب إليك. فالحب قد يوجي بكل شيء، متى دعت الحاجة.

\*\*\*

إن يسوع لا يغيّر نظام الطبيعة، فعلى المسيحي أن يحيا بحسب مقتضياتها. لما ظهرت الحياة الرهبانية في الكنيسة ولزم إنشاء أديرة يعيش فيها الناس عيشة اجتماعية، استخدم الرهبان المحراث، وطحنوا الحب، وخبزوا العيش، وربّوا البهائم، واستعملوا المسيعة والمنشار، وتعلموا القراءة والكتابة واشتروا وباعوا، وكان منهم رؤساء يتولون إدارة شؤونهم. فالفعل المسيحي قوامه نيّته لا مادّته.

وجاء يسوع بأمثلة يعرف الناس بها تلاميذه منها: إطعام الجياع، وكسوة العراة، ومعالجة المرضى، وزيارة المسجونين. فإذا قمنا بذلك نحو أصغر إخوتنا، فقد قمنا به نحو يسوع نفسه. وهذه الأمور يمكن إتمامها بوجوه أخرى كثيرة.

والمحبة تتجه إلى أشد الناس حاجة، فتكون حينئذ خالصة. إذ نقوم بها نحو من لا ننتظر منهم أية مكافأة. وبهذا أشار يسوع على الفريسي حين أوصاه أن يدعو البائسين إلى مائدته.

أما السجناء، فمن حاول أن ينال لهم محاكمة عدلاً، أو يبلغ بهم إلى الإصلاح، كان أبرّ بهم وأحنى عليهم ممن يشفق عليهم شفقة عاطفية. وإذا أمكن رجال القانون أن يمارسوا المحبة نحوهم كانوا أنفع لهم ممن يقدمون لهم هدايا.

"لما كان يسوع في الهيكل، رأى أغنياء يلقون تقادهمهم في الخزانة. وأبصر أيضاً أرملة مسكينة تلقي هناك فلسين. فقال، في الحقيقة أقول لكم، إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقّت أكثر من

الجميع؛ لأن هؤلاء جميعاً ألقوا تقادهم من فضالتهم، وأما هذه، فمما هي إليه بحاجة، إنها ألفت كل معيشتها" (لوقا 21: 1-4).

فإطعام الجياع وكسوة العراة ذلك أكثر أعمال المحبة شيوعاً. ولكن أفضل منهما أن نحمي الجميع من الجوع والعري.

فمن اخترع آلة للنسيج، عمل على كثرة الإنتاج وخفض الأسعار وسهّل كسوة الفقراء بنفقات يسيرة؛ ومن علم الفلاحين حسن استعمال السماد الكيماوي، عاون على زيادة الغلات، وبتخفيض ثمن الخبز، وإزالة الفقر من البلاد.

وعيادة المرضى وعلاجهم من أعمال المحبة العادية ولكن، من درس الطب، أمكنه أن يحسن علاجهم وينفعهم أكثر ممن يجلس بجانب سريرهم. غير أن جميع الناس لا يستطيعون أن يخترعوا آلات أو يدرسوا علوماً، فالمحبة تدفع كل واحد أن يفعل ما يستطيع. ومن كان محباً حقاً، يفعل ما يستطيع.

ثم إن سعادة الناس تتعلق بما يسود المجتمع من النظام، وبما يكون فيه من الشرائع العادلة، والشرطة الساهرة، والطرق الجيدة، والعدالة اللازمة. فتتم معالجة المريض على أحسن وجه، متى كان الطريق بين منزله ومَنْزل الطبيب أو المستشفى حسناً.

لقد تأسست في العصر الوسيط أخوية غايتها إقامة الجسور فوق الأنهار والسواقي. لأن رداءة مقاطع الأنهار كانت تسهل لقطاع الطرق أن يهبوا المسافرين. فكان الإخوة يبنون الجسور وقيمون الملاجئ بقرها، شفقة بالمسافرين ودفاعاً عنهم.

ويمكننا أن نذكر كثيراً من مثل هذه النادرة:

روى جان موسكوس في كتابه عن الرهبان ما يأتي:

"كان في صحراء فلسطين راهب يقيم في كوخ، بجانب الطريق، ما بين أريحا وأورشليم. وكان قد تعود - أيام كان في قريته، إذا رأى أحداً لا يقدر أن يزرع أرضه، لشدة فقره، أن يذهب إليها ليلاً ببقره، فيزرعها، دون علم صاحبها. ولما جاء إلى الصحراء، ظل يمارس فيها ما تعوده من أفعال المحبة. فكان يمضي إلى الطريق المقفرة بين القدس وأريحا، ومعه الخبز والماء للمسافرين. فإذا وجد إنساناً تعباً، حمل عنه حملاً، وسار معه إلى مقره. فكنت تستطيع أن

تراه على الطريق، حاملاً على ظهره حملاً ثقيلاً، أو شائلاً على كتفه طفلاً. وكان المسافرون يرونه أحياناً جالساً على حافة الطريق يرقع حذاء مسافر أو مسافرة، إذ كان معه دائماً ما يصلح به الأحذية. وقد يعمل في ذلك طول يومه كما كان يحدث له مراراً أن يخلع ثيابه ليكسو من لم يبقَ على جلده غير خلقان من الملابس " (راجع ذلك في حياة القديس باسيلوس الكبير طبعة دار المعارف).

\*\*\*

تقضي المحبة أن أرى في كل إنسان أخاً لي، وأن أحبه كأخي، واتمنى له السعادة كما أتمناه لأخي، وأن يسعدني أن أعاون على إسعاده. فإن كنت موظفاً في بنك، فكل من وقف أمام شباكي فهو أخ لي يطلب مني خدمة؛ وإن كنت خبازاً، فكل عميل هو أخ يجب أن أخدمه... وهذه المحبة لا تتغير دائماً طبيعة الأعمال، فالتاجر النبيه قد يجامل من يتردد إلى محلله، ليكسب رضاه، أكثر مما يفعل التاجر المسيحي؛ غير أن المحبة تلقي على مسلك من يرى في رواد محله إخوة جواً من النور غير جو المجاملة ولطف المعاملة. وليس مستطاعاً أن نقول يماذا يقوم ذلك؛ فهو جوّ في المعاطاة أكثر منه في الأفعال نفسها، فهناك ألف ظرف وألف نوع في المعاملة، ولكن ما يمكن إثباته هو أن من يرى في أمثاله إخوة ويعاملهم كإخوة، تكون فيه خاصية لا تكون في غيره من البشر. فهو منبع سعادة لكل من يقتربون منه.

\*\*\*

وتظهر المحبة في الأفعال أكثر منها في الأقوال. ومثل ذلك حب الله وحب القريب، فإنهما يظهران في الأفعال أكثر منها في الأقوال. "ليس من يقول: يا رب، يا رب، يدخل ملكوت السموات، بل من يعمل إرادة أبي الذي في السموات" (متى 7: 21). "إن أحبني أحد يحفظ كلمتي، وأبي يحبه، وإليه نأتي، وعنده نجعل مقامنا" (يو 14: 23).



فحذار ممن يتكلمون كثيراً عن المحبة، ويظهرون أنفسهم أمثلة لها. فليس للخباز أن يقول لرواد مخبزه: "أنتم إخوتي. فإني أبيعكم عيشي لكي تعيشوا سعداء" فلو سمعنا خبازاً يتكلم بمثل هذا الكلام، لوجب علينا أن نحذره.

فالمحبة تعبر عن نفسها بالأفعال ومن يمدح ما عنده من المحبة، فهو إما معجب بنفسه، لا يفتكر في غيره، وإما مختال يحاول أن يكسب ثقة الآخرين، لمنفعته:

"احذروا من الأنبياء الكذبة، الذين يأتونكم بثياب الحملان، وهم في الباطن، ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم" (متى 7: 15-16).

ولكن كل منا، أيّاً كان عمله أو نوع حياته، سواء أكان رئيس دولة أم حارس زراعة، عالماً أم جاهلاً، سليماً أم سقيماً، غنياً أم فقيراً، يكون مركز إشعاع وسعادة، إذا كان الدافع لفكره وأفعاله المحبة، وإذا كان يرى في كل من يقابلهم إخوة وأبناءً لله مثله، ويحبهم، وهو فرح بكل ما في قلبه من فرح الحب الإلهي.

\*\*\*

ذلك يتطلب حياة داخلية فعّالة، تتغير فيها نفسنا بالمسيح تغيراً كاملاً. فلا يكفي أن نختار لنا عملاً من الأعمال ننفع به إخوتنا؛ بل ينبغي أن يدفعنا، كل حين، إلى خدمتهم، افتكرنا في أنهم إخوتنا. فإن فينا ألف مطمع وألف ضعف وتعلق بنفوسنا، مما لا يسهل اقتلعه منها سريعاً. ولا بد لمحبتنا أن تتغذى من مثل المسيح، ومن الحياة التي تبثها فينا الأسرار المقدسة.

ثم لا يكفي أن نفهم أن البشر إخوتنا، بل ينبغي أن تنتشر هذه الأخوة في روحنا حتى يصبح كل ما يحول في خلدنا أخوياً. فليس الإدراك العقلي إلا بداية. وإدراك حقيقة من الحقائق لا يغير الحياة، تلقائياً؛ فإن الشهوة قد تحول ما بين الهقل والحقيقة... فإن كنا متشبعين من الكبرياء ومن حب الذات، وكانت الأهواء الحسية لا تزال تفقدنا السيطرة على أفكارنا وأفعالنا، فكيف يمكننا أن نرى في جميع الناس إخواناً لنا؟

وكل نوع من أنواع الكبرياء، فردياً كان أو جماعياً يخلق فينا روح الحب الأخوي. فمن قال أخاً، قال شبيهاً ومساوياً. فنحن إخوة، لأننا بنو أب واحد، بنو أبينا الذي في السموات. ونحن

مصهورون في حبه. فإذا زعمت أني فوق الباقين، أو أن أسرتي أو أمتي فوق الآخرين، فكيف تكون عاطفتي أخوية حقاً نحو الجميع؟ إن أخوتنا في المسيح هي أعلى من كل تمييز بشري. وهذا يقتضي حياة إتحاد صميم بيسوع، تستنده نعمته بواسطة الأسرار، ويعضده روحه بالتأمل في كلامه وحياته.

\*\*\*

والذين يهتمون من المسيحيين بأن يُحبوا فهم هذه الروح الأخوية ليسوا كثيرين. والذين يُدعون مسيحيين طبيين، فإنهم يكتفون، غالباً، بأن يقصدوا قصداً عاماً أن يخدموا الله والقريب؛ ثم لا يفكرون في ذلك، متى دعت الحاجة، لأنّ نفسهم خالية من الحب الأخوي المحيي الذي يدفعهم إلى العمل. يصير الشاب طبيباً، وفي نفسه رغبةً أن يصنع الخير، ولكنه لا يلبث أن تشغله هموم أخرى، كالكسب المال، وحياة الرفاه. فقد يكون في منى النزاهة والغيرة على مرضاه، بدون أن يعرف الحياة الأخوية والحب المسيحي الذي يريه في الغير أخاه. إن بعض المهن معدّة بذاتها لنفع الغير. فالطبيب، والممرضة، ورجل الدولة، والمدير العام، والعمدة؛ جميع هؤلاء يعلنون أنهم يعملون للمصلحة العامة. وأكثرهم مخلصون، ويريدون أن ينفذوا ما يقولون، ولكنهم يعجزون عن تحقيق ما يريدون، لأنهم مشغولون بذاتهم، معجبون بنفسهم، لا يبادرون إلى خدمة الغير بمحبة خالصة. فيجب أن تكون الشجرة صالحة حتى تأتي بثمار صالحة؛ وصلاح الشجرة في أصولها، فيما لا يراه الناس، كما أن صلاح الإنسان فيما لا تراه العيون: "إن الإنسان الصالح من كثر قلبه الصالح يخرج الصلاح... ومن فيض ما في القلب يتكلم الفم" (لوقا 6: 45) "ومن القلب تخرج الأفكار الشريرة" (متى 15: 19). فإذا كانت هذه الحال من استعدادوا لخدمة الغير، فما عسانا ننتظر من الآخرين؟ فالناس لا يزرعون ويتاجرون لخدمة الغير.

\*\*\*

متى فكرنا في ملايين الناس ممن ندعوهم مسيحيين، نراهم لا تخطر ببال أكثرهم دعوة الرب: "من أراد أن يكون لي تلميذاً... فيسوع يكرر النداء. وهم لا يكثرثون؛ إنهم معمدون، وكثيرون من بينهم يمارسون؛ ولكنهم لا يختلفون عن من لا يمارسون. "فإنكم إن أحببتم من يحبكم، فأني

أجر لكم؟ أليس العشارون أنفسهم يفعلون ذلك؟ إن لم تسلّموا إلا على أخوانكم فقط؛ فأى عمل خارق تصنعون؟ أوليس الوثنيون أنفسهم يفعلون ذلك؟ فأنتم، إذن، كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل" (متى 5: 46-48).

فهؤلاء المسيحيون لا يحبون إلا من يحبهم، ولا يسلمون إلا على إخوانهم، ولا يرغبون، بأي وجه من الوجوه، أن يكونوا كاملين.

فلندعهم، الآن، إلى حين، ولننظر فيمن يريدون أن يلبوا دعوة يسوع القائل: "من أراد أن يكون لي تلميذاً... من أراد أن يتبعني".

ما كان هؤلاء قط كثيرين. وحسبنا أن نفتح رسائل الرسل فنرى أنهم كانوا قليلين في الكنيسة الأولى. إنهم ملح الأرض. ونور العالم، والخميرة التي خلطتها امرأة في ثلاثة أكيال من الدقيق... هذا هو فعلهم. فلا ننتظر أن يصبح جميع الناس، ولا عدد كبير منهم تلاميذ. ولا شك أن يسوع نفسه لا ينتظر ذلك منهم؛ فهذا أمر لم يحصل في الماضي، وما من دليل على أن يحصل في المستقبل...

\*\*\*

لما تنصرت أوروبا الغربية، فكر بعضهم في إنشاء جامعة نصرانية تستوحي دستورها من المسيحية. فأخفق المشروع، غير أن كثيرين ما برحوا يحملون به. وهو أمر لا يمكن تحقيقه، ما لم يكن من يقومون به تلاميذ "من أراد أن يكون لي تلميذاً... فجامعة مسيحية تتألف من معمدين غير صالحين لا تكون أهلاً لأن تسمى مسيحية.

فالكنيسة، باسم المسيح، تعلّم احترام العدالة. فإن يكن المكلفون بإقامة العدل ظالماً، في داخلهم، يخالفون الشريعة، ويسلكون بخلاف ما يظهرون من الاحترام للكنيسة، وبخلاف ما ينادون به من أنهم مسيحيون، فإنهم يجعلون الكنيسة أمام الناس متواطئة معهم في ظلمهم. قد شاهدت الدنيا ملوكاً قديسين كانوا تلاميذ حقيقيين وحاولوا أن يجعلوا ممالكهم مسيحية؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يجعلوا خواصهم وأعوانهم مسيحيين مثلهم ولا جميع شعوبهم.

إن المسيح يطلب من المسيحي ألا يهتم بأمور الأرض، حتى ولا بمملكة تكون لخدمة المسيح.

فملكوت الله في داخلنا. هو مملكة نفوس؛ فإذا حصرنا ملكوت الله في أنظمة بشرية، أفسدناه، لأن الاهتمام بالمنظورات يحول دون الافتكار في الإلهيات.

وما زالت الكنيسة على ممر الأجيال تكافح الماديات، لتحفظ المكانة الأولى، بين أبنائها، للروحيات. وإذا كانت هي مجتمعاً منظوراً، فما ذلك إلا حفظاً للإلهي فيها غير المنظور، لأن مملكة النفوس تحتاج إلى دعامة حسية. ولهذا صار الكلمة بشراً ولزم أن تواصل الكنيسة عمله بشرياً.

أما الجامعة المسيحية الزمنية فشيء آخر. والرغبة فيها، وإن تكن عن كرم في النفس، يصحها شيء من السذاجة – أن تخدم المسيح! – رغبة ساذجة، لأن من يفكرون فيها لم يحسبوا حساباً لما تكلف الناس من الجهود حتى يؤلفوا جامعة مثلها. وكأنهم لا يكتفون بمملكة غير أرضية تضم جميع المسيحيين. فهم يتمنون أن تكون مملكة الله على الأرض محسوسة وملموسة. وهذه فكرة تشبه ما كانت عليه فكرة اليهود في مملكة المسيح، وإن اختلفنا روحياً. لأن اليهود كانوا ينتظرون مملكة غنى وقوة تسلطهم على جميع الشعوب.

هذا الافتكار في مملكة أرضية تحلّ محلّ مملكة الله يدلّ على ما بين تصور البشر ومملكة غير أرضية من البعد الشاسع. فالإنسان مخلوق مادي يظل محتاجاً إلى التفكير في أمور مادية، لأنه يرى الأشياء المادية وحدها حقيقية. أما ما يقدمه لنا يسوع فهو فوق قدرة البشر، لأنه إلهي؛ ولا يبلغ إلى الملكوت الإلهي سوى القلوب النقية الخلية من غبار المادة.

لذلك نرى يسوع يعرض كل المعارضة من يحاولون أن يشغلوه في المسائل الأرضية والزمنية. وقد نظنه أحياناً عنيفاً كما فعل يوم نهر ذلك المسكين حين طلب منه أن يقول لأخيه أن يقاسمه الميراث. ولكن متى تأملنا التاريخ المسيحي، نتساءل، أما كان ذلك العنف خفيفاً؟ فإن المسيحيين ما كادوا ينتعشون حتى عادوا إلى فكرة مملكة زمنية، وجرّوا الكنيسة معهم في أحوال هذه المملكة وأشركوها في أنظمة بشرية وأساليب سياسية. ولا يزال بعض المسيحيين حتى الآن يعتقدون أن الكنيسة عندها من الكفاية ما تستطيع أن تحل به المشاكل الاجتماعية.

\*\*\*

ليس المقصود إنشاء مملكة إلهية على الأرض، ولكن المقصود أن يكون المسيحي نوراً وخميرة. فالمسيحي ليس من العالم، بل هو في العالم، وليس ينعزل عن العالم. "لا يوقد سراج ويوضع تحت المكيال" (متى 5: 15) وما نفع الخميرة، إن لم توضع في العجين فيختمر؟ المسيحي يشرك من حوله بما عنده من الحب بحسب دعوته. فقد رأينا يسوع لا ينكر مهنة من المهنة؛ ونرى القديس بولس يوصي الكورنثيون أن يظلوا على ما هم عليه: "أيها الإخوة، ليستمر كل واحد أمام الله على ما دعى فيه" (كور أولى 7: 24).

فإذا كان المسيحي ملكاً، كان خير الملوك؛ وإن كان قاضياً، كان أفضل القضاة، وإن كان فلاحاً أو عاملاً، كان خير الفلاحين وخير العمال. وظل في حياته الخاصة والعامة مفعم القلب من حب إخوته بالمسيح. وطالما بقي في العالم مسيحيون مثل هؤلاء، يتسع ملكوت الله، هذا الملكوت غير المنظور الذي بيننا وفي نفوس من يسمعون ليسوع ويتكربون من أجل ملكوته.

## الفصل الثامن الزواج المسيحي

للإنسان في علاقاته الإنسانية بيئتان، البيئة العائلية المحدودة والبيئة الاجتماعية. فالمحبة تطوّر علاقاته مع المجتمع كما تطورها في الأسرة.

ويمكن الأسرة أن تتطور بالمحبة أكثر من المجتمع؛ لأن الأسرة مؤسسة على سرّ، في حين لا سرّ يرتب العلاقات الاجتماعية. وقد جعل يسوع الزواج سرّاً لما له من الأهمية ولما يترتب على رسمه من النتائج.

فالأسرار علامات حسية سنها السيد المسيح لتشير إلى النعمة وتمنحها. فبالنعمة يحضر الله فينا، ويتحد بنا، ويشركنا في حياته الإلهية. وهكذا سر الزواج يمنح الرجل والمرأة الحياة الإلهية وينميها في نفسيهما لكمال الاتحاد بينهما.

وهذا السر لا مثيل له في الديانات كافة، ولا في المسيحية نفسها. فهو في الأصل رسم طبيعي في الجنس البشري قد رفعه المسيح إلى ما فوق الطبيعة. وهو الرسم الطبيعي الوحيد الذي يتدخل الله فيه مباشرة بهذا الشكل، فلا عجب بعد ذلك أن تكون الأسرة بين كل الرسوم الطبيعية هي التي حولتها للمسيحية تحويلاً عميقاً.

\*\*\*

ينتج مما سبق أن الزواج يقّده النفوس، وأن المسيح رأى فيه وسيلة إلى التقديس. وبما أنه الحالة التي يعيش فيها معظم الناس، وجب أن يرى فيه يسوع حالة تقديس عادية للشخص البشري، فرفعه إلى درجة السرّ.

وإذا كان يسوع قد قدّم حالة العزوبة لما فيها من الانقطاع إلى خدمة الله، فالزواج ما برح سبيل قداسة أيضاً. ودعوة المسيحي إلى الزواج أو العزوبة هي دعوة إلهية إلى القداسة؛ تزوج المسيحي أم لم يتزوج. وإذا كان يسوع قد رفع الزواج إلى درجة سرّ فلن يدل على ما للاتحاد الزوجي من الأهمية الكبرى في حياة الجنس البشري.

والقدّيس بولس يدعو المؤمنين جميعاً "قدّيسي كنيسة الله" لأن كل مسيحي مدعو إلى القداسة في حب الآب بالابن والروح القدس.

\*\*\*

قد يظهر لنا ذلك، أول الأمر، غامضاً؛ وقد يعدّه البعض متناقضاً. وهل في تعليم المسيح شيء لا يبدو أول أمره غامضاً بل متناقضاً؟

لقد كان الحب البشري دائماً مقسماً بين أسى المثالية وأحط الشهوات الدنيئة. ولو كان الزواج إشباع شهوة بدنية وطلب متعة مادية، لكان والحب الإلهي على طرفي نقيض. ولكن في الحب البشري شيئاً آخر، وقد كان فيه دائماً شيء آخر، فيه اندفاع نحو الجمال، ونزوع إلى الكمال. هو اندفاع يلتمس من خلال المحبوب شيئاً غير محدود. وحسبنا في ذلك أقوال الشعراء في الحب عند كل الأمم - فمنذ الملاحم البدائية - نرى ما يعانیه العشاق من المشاق وما يصبرون عليه من الآلام في الحب. وجل أمانهم ممن يحبون نظرة أو ابتسامة. فينبغي أن نستنتج من ذلك أن في أبسط الحب البشري شيئاً آخر غير الشهوة الجسدية، وأن ما يحتمله العاشق من التضحيات لفوق قيمة الشخص البشري؛ إذ يظهر له المحبوب كأنه الواحد الفرد لا إنسان عادي، يرى من خلاله المطلق متحداً به، ولا يرى المطلق بهذا الشكل إلا في المحبوب.

لو لم يكن في الحب إلا الجسد البشري، لكان لروميو أن يحب خمسين بنتاً عدا جوليت؛ ولكان لجوليت أن تحب خمسين شاباً غير روميو - ولا يقال الوهم والخيال - فإن مأساة روميو وجوليت مأساة صحيحة تتجدد كل يوم؛ ولهذا كان لها هذا الصدى العميق في الضمير الإنساني. فالحب يبيلور النفوس فتري في الحبيب الواحد الفرد، حتى لتعزو إليه ما ليس بشياً من الصفات - والواحد الفرد هو الله. فالحب يظهر الله من خلال الحبيب.

وجميع الآداب قد وجدت نغماً إلهياً في الحب، ولكن أكثرها أساء التعبير عنه، إلا من استمعوا إلى المسيح فأحكموا التكلم عن الله.

عندما يجعل المسيح الزواج وسيلة إلى حياة إلهية، يضمن فيه هذه النزعة الأساسية التي تشرف الحب، ويدافع عنها حينما يجعل من اتحاد الحب البشري اتحاد حب إلهي. فيغمر الحب الإلهي الحب البشري، حتى ليستطيع الحبيب أن يرى في حبيبته، بكل صواب، ابتسامة الله.

\*\*\*

لم يذكر الإنجيليون شيئاً عاماً من أقوال يسوع في الزواج؛ ولكن التقليد المسيحي لم ينسَ أنهم خصوا بالذكر عرساً شهده وصنع فيه أعجوبته الأولى؛ إذ حوّل الماء خمراً جيدة، ليزيد من بهجة العيد (يو 2: 1-11).

وفي مثل العذارى الحكيمات والعذارى الجاهلات، يشبه نفسه بعريس. وهو تشبيه مألوف عنده: "هل يستطيع بنو العرس أن يحدّوا، ما دام العريس معم؟" (متى 9: 15).

وفي هذا كان القديس بولس يفكر، حين كتب في رسالته إلى الأفسسيين (5: 21-33) يشبه الزواج باتحاد المسيح و الكنيسة:

"فأنتنّ، أيتها النساء، اخضعن لرجالكن كما للرب. لأن الرجل هو رأس المرأة، كما أن المسيح هو رأس الكنيسة، التي هي جسده وهو مخلصها؛ فكما تخضع الكنيسة للمسيح، كذلك فلتخضع النساء لرجالهن في كل شيء".

"وأنتم، أيها الرجال، أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة. لقد بذل نفسه لأجلها... فكذلك، يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم الخاصة؛ من أحب امرأته، أحب نفسه. فإنه ما من أحد أبغض قط جسده الخاص؛ بل إنما يغذّيه، ويعنى به، كما يفعل المسيح بالكنيسة".

فالقديس بولس يبين وسم الزواج المقدس، بتقريبه من اتحاد المسيح بالكنيسة. وإذا وجب على الزوجين أن يكون عند كل منهما للآخر ما عند المسيح للكنيسة كان اتحادهما، ولا شك، مقدساً مثال القداسة الكاملة، وفوق اتحاد اثنين لا يطلبان في الزواج إلا سعادة بشرية.

يقوم سر الزواج بأن يجد كل من الرجل والمرأة، في الآخر ما يحقق مثال الحب الإلهي، الذي يدعوها إليه الله تعالى. فموضوع الزواج المسيحي، إذن، هو تفتح الحب الإلهي في الحب البشري وبه، بقبول الزوجين السر المشترك - وهو وحده سر مشترك، لا يمكن أن يقبله شخص واحد ما لم يتحد بآخر - ويصبح الحب البشري الذي يجمع بين الرجل والمرأة حباً إلهياً، بواسطة السر - حباً يكون الله فيه طرفاً في الحب البشري نفسه.

فالزواج المسيحي، في جوهره، عمل روحي. ومن أراد أن يكون تلميذاً للمسيح يتزوج لأنه يؤمن بأنه يحقق في الزواج ملء الحب الإلهي الذي يدعو إليه الرب. وهو يحقق هذه الدعوة مع



الزوجة كما تحققها هي مع زوج، فيكون الحب حباً بين اثنين، حباً واحداً في شخصين، يجعل حياتهما المقتزنة عمل حب واحد، حب الزوجين للآب بالمسيح، وحب كل منهما للآخر ينصهر في وحدة الحب الإلهي الذي يستولي عليهما معاً، دفعة واحدة، وهذا ما يفسر وحدة السر في القرينين.

أما حالات الزواج الطبيعية فلا تتغير بسبب ما تقدم. فحب المسيح لا يغير الطبيعة بل يرفعها فوق ذاتها ويمزجها في الحب الإلهي. فتبقى أحوال الحياة الإنسانية على ما هي. والمسيحي، أميراً كان أم فلاحاً، يظل كما كان. فالمجتمع المؤلف من مسيحيين لا غير يحتاج كغيره إلى حكام وفلاحين. والمسيحي مثل سواه يحتاج إلى الطعام والشراب ويجد فيهما ما وضعه الله فيهما من اللذة. ومع ذلك فكل شيء قد تحوّل، لأن حب الآب يغير كل شيء.

والزواج نفسه كذلك. فسعادة الزواج البشرية، وما يجذب الشاب إلى الشابة، وما توليها لذة اتحادهما وثمره حبهما... كل هذا يبقى، ولكنه قد تغير.

"إذا أكلتم أو شربتم، ومهما صنعتم، فاصنعوا كل شيء تمجيداً لله" (1 قرنثيين 10: 21) باسم يسوع ربنا، شاكرين لله أبينا" (كولسي 13: 17).

\*\*\*

يوجز القديس أغسطينوس خيرات الزواج بثلاث كلمات: الإيمان، والأولاد، والسرّ. فالإيمان الزوجي هو أمانة وحب؛ والأولاد، ثمار وتكريس للحب؛ هذه خيرات الزواج الطبيعية. أما السر فإنه يطوّر هذه الخيرات ولا يغيرها.

فيصبح الزواج المسيحي عمل اثنين قد حققا حب المسيح. وعندما يظهر الزوجان معاً بين الناس، متحدين زواجياً، وعائلياً، يقدمان للعالم، بحبهما المتبادل، مشهد الحب المسيحي، ويتقدمان بهذا الحب الذي وحدهما، لكي يحبا به جميع الناس إخوتهما.

ويكون الأولاد العمل الخالص القداسة؛ فقد ولدوا لا ليخلدوا والديهم بل خلقوا بشراً يقدمهم والدوهم للمسيح لكي يمجدوا الله.

وإذا كان ما فينا من حب الله إنما هو فينا لكي نحب إخوتنا، فكيف نقدّر عظمة من لا يقتصرون على ذلك، بل يضعون في العالم، بعملهم، خلائق منهم، بشراً معدّين للحب

ومدعوين إلى الحب، وإلى أن يجدوا من يحبهم؟ وكيف نبين سمو العمل الذي يؤدي إلى إبداع إنسان جديد يقدر أن يحب الله ويقدر الله أن يحب به إنساناً جديداً.

\*\*\*

الزواج المسيحي هو عمل حياة كاملة، فائقة الطبيعة. فالزوجان مدعوان إلى حب يغمره الحب الإلهي. ومتى اتحد الزوجان على هذا الحب، وبذلاً جهدهما ليرتفعا إلى الكمال، تكن عائلتهما منارة أمام الناس، وتزداد إشراقاً بما يقدمه المجموع لكل فرد من أفرادها.

هذا التصور في الزواج يتفق كل الاتفاق وما يطلبه يسوع من تلاميذه، ولكنه ليس من السهل تحقيقه. فقد سبق أن قلنا إن التلاميذ الحقيقيين غير كثيرين. والأزواج المسيحيون لا يمكن أن يكونوا إلا بين التلاميذ. وكل ما قلناه عن التلاميذ يصح في الأزواج. فالعالم يسيء الظن بالأزواج المسيحيين، لأنهم يطلبون في الزواج درة ثمينة لن تبرح خفية على العالم؛ شيئاً ثميناً لا يستطيع أن يتصوره. لا يستطيع العالم أن يفهم أن لذات الجسد وطلب الرفاهية في الزواج لا تشغل ما ينسبون إليها من المكانة، فيما بين خيارات الزواج.

عرف القديس بولس أن الكورنثيين غير سالكين في كمال الحياة الزوجية. فكتب إليهم: "إن غير المتزوج يهتم بما للرب، كيف يرضي الرب؛ وأما المتزوج فيهتم بما للعالم، كيف يرضي امرأته؛ فهو متجزئ. وكذلك المرأة الغير المتزوجة والعذراء تهتمان بما للرب، لتكونا مقدستين جسداً ونفساً؛ وأما المتزوجة فيهتم بما للعالم، كيف ترضي رجلها" (1 كور 7: 32-34).

لا شك أن ما يذكره القديس بولس عن الكورنثيين يتفق وما هو جارٍ في العالم؛ ولا شك أيضاً أن الزواج يربط الرجل والمرأة فيما بينهما، وليس بينهما فحسب، بل بينهما وبين العالم، ويخلق لهما كثيراً من الضرورات المادية والاجتماعية مما يعرض نفسيهما إلى الأخطار. ثم إن طلب السعادة البشرية قد يضعف الحياة الروحية؛ فسعادة الأرض لا تميل بالإنسان إلى الالتفات إلى السماء. وحادث الشاب الغني قد يتجدد في كل زواج سعيد، لأن السعادة الروحية أعظم غنى في هذا العالم.

ومن هذا نفهم تفضيل يسوع لحياة العزوبة، وإن لم يتردد في جعل الزواج سرّاً، لأن الزواج في ذاته سبيل إلى القداسة؛ ومن يقبلونه بهذه الروح يقومون بعمل مقدس.

ثم لا ننس أن يسوع لم يتمادَ في إثارة العزوبة، ولا القديس بولس، ولا ذكر الإنجيليون إلا كلمة من هذا القبيل نطق بها يسوع، وكان قد أنكر الطلاق. فصاح التلاميذ مذعورين من تلك الشدة وقالوا: "إن كانت هذه حال الرجل مع امرأته، فالأولى له أن لا يتزوج". فقال لهم يسوع: "ليس الجميع يفهمون هذا الكلام، بل أولئك الذين أوتوا أن يفهموا وحدهم. فإن من الخصية من ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم، ومنهم من خصاهم الناس، ومنهم من صانوا أنفسهم من أجل ملكوت السموات. فمن استطاع أن يفهم فليفهم" (متى 16: 10-12).

فنحن نرى يسوع هنا يقدم العزوبة لمن يريد أن يتقيد بها "من أجل ملكوت السموات" كدعوة خاصة. فما أنكر الزواج ولا احتقره ولا أتبع كلامه بالصيغة المعهودة: "من أراد أن يكون لي تلميذاً..."

ولا القديس بولس أراد أن يعلم تعليماً قاطعاً في هذا الأمر، كما جاء في الآتي من رسالته إلى الكورنثيين: "أما من جهة ما كتبتكم به إلي، فحسن للرجل أن لا يمس امرأة، ولكن، تلافياً للفجور، فلتكن لكل رجل امرأته، وليكن كل امرأة رجلها. ليقض الرجل امرأته حقها؛ وكذلك المرأة أيضاً رجلها. إن المرأة لا تتسلط على جسدها، بل الرجل؛ وكذلك الرجل أيضاً لا يتسلط على جسده، بل المرأة. لا يمنع أحدكما الآخر عن ذاته، ما لم يكن عن موافقة، وإلى حين، لأجل التفرغ للصلاة، ثم عودا إلى ما كنتم عليه، لئلا يجربكما إبليس، لعدم عفتكما. وإنما أقول ذلك على سبيل الإباحة لا على سبيل الأمر. فإني أودّ لو يكون جميع الناس مثلي. غير أن كل واحد له من الله موهبة خاصة، فللواحد هذه، وللآخر تلك" (كور أولى 7: 1-8).

الزواج، إذن، طريق قداسة، وهو لذلك طريق وعر.

ولا بدّ للزواج المسيحي من الحياة الداخلية. فعلى الشاب والشابة، تحقيقاً لحياتهما المسيحية في الزواج، أن يضعوا نصب أعينهما، واقع اتحادهما الروحي، حتى يستعدا له، قبل الزواج، ويقدموا عليه إقدام مسيحيين.

وسرّ الزواج بذار يقبله الزوجان عندما يعقدان قرانهما، فيحي فيهما ميلاً إلى أن يعيشا على مثال حياة المسيح. ولكن هذا البذار لا ينمو إلا إذا تعهداه بالمواظبة على قبول الأسرار وبحياة داخلية صميمة.

وعلى الزوجين أن يفهما أن الكمال المسيحي كله وما يصحبه من التكاليف والحب يجب أن يحققه معاً، يداً بيد. ولا بد لذلك من أن يكونا كلاهما مسيحيين من طراز واحد واشتياق واحد إلى أن يلبيا دعوة المسيح. فإن يكن أحدهما خالياً من هذا الاشتياق، لم تتحقق قداسة الزواج الخاصة وأصبح الزواج تجربة ومحنة لمن يريد منهما أن يتبع المسيح. أما كونه تجربة، فلأن الزوج العالمي يحاول أن يجر الآخر إلى طريقه، وطريق العالم أوسع وأسهل. وأما كونه محنة، فلأن الزوج المسيحي لا يعدم أن يجد في مصاعبه سبيلاً إلى المقاومة، وإلى إظهار تعلقه بالمسيح.

فالزوج المسيحي الذي لا يجد في قرينه صدى لرغباته الروحية، يمكنه بل يجب عليه أن يتجه وحده إلى القداسة الشخصية التي يدعو إليها يسوع جميع تلاميذه، فيجد، ولا شك، في سر الزواج، وسائل فائقة الطبيعة لكي يمارس في بيئته حياة مقدسة، وإن لم يقدر أن يبلغ إلى ملء القداسة الخاصة بالزواج، لأنها تقتضي اتحاد الزوجين روحياً ومادياً. وبخلاف ذلك، إذا تحقق الاتحاد، وتعاون الزوجان فإنهما ينجبان الأولاد بفرح، ويقدمان للحب الإلهي نفوساً عامرة بالقداسة.

## الفصل التاسع

### الوعد الإلهي

الحياة المسيحية هي من الجمال بحيث لا يتصور من فهمها جمالا يحاكيها. فافتتح المسيحي فيها تفتحاً كاملاً، ويرى كل ما كان يظهر له في كلام المسيح عن التخلي صعباً قد زال، في هذا الانسجام، فيتملكه الفرح حتى يبلغ به إلى أن يقول: "عمّ تخلّيت؟" وبدلاً من أن يفتخر بشجاعته، يشعر بالخجل من سعادته.

ولكن تمرّ به أوقات يظن فيها، ولا سيما في بدء تحوّلها، أن المثال المسيحي محال، وأن هذه الطهارة، وهذا الانسجام بين أفكارنا جميعاً ورغباتنا في الحب الإلهي، مما يتجاوز حدود شواغلنا اليومية. فكل شيء فينا مادي، حرج ومبتذل يشعرونا أننا أعجز من أن نرتفع إلى قمة هذه الطهارة. فنحن في سفح جبل عال، نعلم يقيناً أن الهواء فوقه نقي ينعش النفس، وأن الأفق فسيح، والنور شفاف، وأننا نكون على قمته، وكأننا في عالم آخر. غير أنه عال، والمرتقى إليه صعب. فكيف نبلغ إليه وأقدامنا ثقيلة، لاصقة في ثرى السهل.

لكن يأتي يسوع ويؤمّن ما عندنا من الوسائل: لأنه يعلم عجزنا، ولا يخفي عنا رأيه فينا: "إنكم بدوني لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً" (يو 15: 5) ولكن الحياة التي يعرضها علينا - بل التي يأتينا بها - يمنحنا الوسائل لتحقيقها، فيقول لنا: "تعالوا إليّ أيها التعبون والثقيلو الأحمال وأنا أريحكم".

لقد وعد. فهو يريحنا. وليس لنا إلا أن نأتي إليه فيروي عطشنا، (يو 7: 37) عطشنا إلى الطهارة، وعطشنا إلى الكمال.

فلنمضِ إليه. إن درب الجبل أماننا صعود؛ "ما أخرج الطريق التي تؤدي إلى الحياة" (متى 7: 14) فلن نقطعها أبداً وحدنا. ولكن المعلم لا ينتظر إلا لفتة من حسن إرداتنا حتى يمدّ يده إلينا: "اطلبوا ملكوت الله، وهذه كلها تزداد لكم" (لوقا 12: 31).

تزداد لكم، لم يقل تنالونها بكدكم: بل قال: تزداد لكم.

\*\*\*

فيسوع يرسل إلينا روحه. وقد قال لرسله في خطابه بعد العشاء وهو يودّعم: "وأنا أسأل الأب فيعطيكُم محامياً آخر ليقيم معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه؛ أما أنتم فتعرفونه، لأنه يقيم معكم ويكون فيكم... وأما المحامي، الروح القدس، الذي سيرسله الأب باسمي، فهو الذي يعلمكم كل شيء، ويزدركم جميع ما قلت لكم... ويرشدكم إلى الحقيقة كلها" (يو 14: 16، 17، 26، 16 و 13: 16).

ويسوع يؤمّننا، فينبغي ألا نخاف من ضعفنا، لأنه يكون هو قوتنا. وإذا صدمتنا متاعب فوق طاقتنا، كان روحه فينا. "متى أسلموكم تلك الساعة؛ فإنكم لستم أنتم المتلكمين، بل روح أبيكم هو المتكلم فيكم" (متى 10: 19-20).

\*\*\*

أما يغنيننا هذا؟ فهوذا يسوع يذهب بنا إلى أبعد ما يمكن حتى نفهم... فهو يقدم لنا ذاته طعاماً: "أنا خبز الحياة؛ من يأتي إليّ فلن يجوع" (يو 6: 35) هو خبز حقيقي، غذاء يؤكل "جسدي مأكّل حقيقي ودمي مشرب؛ من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه... من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية" (يو 6: 55-56).

"ذلك شكّ لليهود وجهالة للأمم" وقد بلغ الشكّ من السامعين حتى حمل كثيرين من التلاميذ على الانصراف" (يو 6: 60).

ذلك جنون... "ولكنه عند المدعوين قوة الله وحكمته".

فإذا كان يحبنا إلى هذا الحد، ويعدنا كل شيء، وإذا كان ربّ الحقيقة وقادراً على كل شيء، فمّم نخاف؟ لقد غلب العالم؛ وهو يأتي عندنا مع الأب، ويرسل إلينا الروح؛ وحياته تسري في كيانتنا، وروحه يحيينا. لا شكّ أننا خلائق ضعيفة، وسنبقى ضعفاء. ولكن نفسنا قد تغيرت، وأصبح فعلنا فعلاً إلهيّاً فكيف نخاف أن نسير في الطريق ولا نبلغ إلى الغاية؟

"إني أستطيع كل شيء في الذي يقويني" (فيلبي 4: 13) وكيف لا نفرح، ونكون في سلام، "سلام الله الذي يفوق كل فهم" (فيلبي 4: 17).

وإذا زللت كل يوم، ووهنت روحي، فإن فهم الأمور الإلهية هذا الخبز الحي يحييني.

أنا ضعيف، ولا ريب، ولكني لا أتوقف في ضعفي، ما دام عند حب الآب، وحضور الروح، وهذا الخبز، وعند الصليب. وهذا كله واحد، حب واحد دائم منذ الأزل، وما دام الله محبة (1 يو 4:8) في وحدته التي لا توصف.

فالمسيحي يعترف بضعفه، ويسير عالي الرأس، لأنه يحمل في ذاته وعد الله.

## الفصل العاشر

### رحمة الأب

لكن فينا اثنين: التلميذ والآخر.

فالآخر هو البائس، الأعمى، والأعرج المخلّع، ومن لا يسعه إلا أن ينطرح على جانب الطريق ويصرخ: "يا رب اشفني".

لسنا خلائق بسيطة. فنحن متقلبون، بين يوم وآخر وبين صعود وهبوط. فيينا نرانا اليوم آمنين برؤيا الحقيقة إذ بنا غداً مترددون ومتعثرون.

نرى الملكوت جمالا كله، ولكننا أمامه كالمخلّع على حصيره.

ونعلم حق العلم أن الحياة الإلهية هي الدرة الثمينة التي ينبغي أن نضحى في سبيل اقتنائها بكل شيء، ولكن تمرّ بنا أوقات تغشّي فيها الخلائق كل رؤانا.

فقد يظهر هذا لنا مناقضاً لما مرّ بنا في الفصل السابق، ولكن لا غرابة، فنحن نناقض نفسنا بنفسنا. وما لنا إلا أن نطالع الإنجيل، فنرى الرسل أنفسهم على شاكرتنا. نعم، ليسوا كالعامة؛ فهم صورة الصفوة من الناس، بكل نشاطهم وملهمهم، وسخائهم وتعلقهم بالدنيا، ومطامعهم الأرضية وإيمانهم بالمعلم، وقلة فهمهم له؛ وهم مع ذلك يتبعونه.

\*\*\*

وعلى هذا، فكل منا يصح عليه مثل الابن الشاطر، ومثل وليمة العرس، ومثل النعجة الضالة. ومهما شئنا أن نعطي وأن نتخلى عن ذاتنا، فما من أحد منا لا يسمع نداء الشهوات ويصغي إليه، فيتراخى ويتواكل. لقد استمعنا إلى يسوع، ونحن نريد أن نكون من تلاميذه، ولكن ما يعرضه علينا رفيع سام هو قمة الجبل؛ فلا نكاد نلمح صفاءه حتى نتقاعس ونبقى محلنا. إننا نتعث. وقد نسقط، أو نلزم مكاننا. لا نفعل شيئاً، كالمخلع أغبياء، أو كالجثث وقد فاحت منا رائحة الخطيئة.

فنحن بحاجة إلي من يقول لنا إن الراعي الصالح يترك التسعة والتسعين خروفاً الهادئة، ويمضي باحثاً عن الخروف الضال، ونحن بحاجة أن نتذكر الرب، والمخلع أمامه لا ينطق



بكلمة، ولا يطلب المغفرة، وهو يقول له: "مغفورة لك خطاياك" ويشفيه ليعلم من حضر ومن غاب أن ابن البشر له على الأرض سلطان مغفرة الخطايا (مرقس 2: 12-3).  
ولا يمكننا أن نثق بنفوسنا، ألبتة، بل يجب أن نعلم أننا نُدفع دفعاً إلى الوليمة، العرج وعكازاتهم، والعمي وعصيتهم، والصمّ وسماعاتهم، والمقعدون وعجلاتهم، وكلنا ندفع دفعاً - فنحن ساحة أعاجيب، ومحكمة دائمة لا تنفض أبداً. وكل شيء يتم بهتاف الفرح على مائدة الحمل.

فأية دهشة لا تعترينا، حين نفكر أن الملكوت بكل بهائه إنما هو معدّ لنا، وأننا نحن المعدّون لدخوله. وكيف نستطيع أن نقدّر حب الأب لنا، عندما نعلم أننا نحن الذين يحبهم. ولكن، لا حاجة إلى التقدير؛ وحسبنا أن نعلم. وإنا لنعلم أنه مستعد أن يسامحنا في سر التوبة، متى هفونا.

\*\*\*

ولا يُحرم من الدخول سوى من يظنون أنهم أعلم من المعلم بما عليهم أن يعملوا، وسوى من يسرّهم أن يعجبوا بما فيهم من الفضائل.  
"رجلان صعدا إلى الهيكل ليصليا، أحدهما فريسي والآخر عشار. أما الفريسي، فانتصب يصلي في نفسه هكذا: اللهم، إني أشكرك، لأنني لست كسائر الناس، الخطفة الظالمة الفاسقين؛ ولا مثل هذا العشار. فإني أصوم مرتين في الأسبوع، وأؤدي العشر عن جميع ما أقتني... وأما العشار، فأقام بعيداً، ولم يجرؤ أن يرفع ناظريه إلى السماء، بل كان يقرع صدره، قائلاً: اللهم، اغفر لي، أنا الخاطيء... أقول لكم، إن هذا الأخير نزل إلى بيته مبرراً دون ذاك؛ لأن كل من يرفع نفسه يوضع، ومن يضع نفسه يُرفع" (لوقا 18: 10-14).  
لم يقل يسوع إن ما كان الفريسي يقول باطل. فقد كان ممن ندعوهم أفاضل الناس. ولكنه أنكر عليه صلاته.

\*\*\*

الكنيسة عروس المسيح تقتفي آثار عريسها.

فتفتح الباب واسعاً لكل من يحبون الدخول، حالما يعترفون بيسوع ويقبلون رسالته. فإن كانوا خطأ، غفرت لهم، وسكبت عليهم غزير النعم بذبيحتها وأسرارها. وهذه أقوال الرسل لدينا عن المسيحيين الأولين؛ فقد كان بينهم خطأ كثيرون، متى عرفنا ما كان يطلبه القديسان بولس ويعقوب منهم، وما كانا يؤاخذناهم عليه، نجد مسيحي عصرنا دونهم ذنوباً وعيوباً. فالكنيسة تقبل الزناة، والسراق، والقتلة، على أن يتوبوا؛ وتقبل معتادي الإثم، حالما يعودون، نادمين، لا مرة، ولا سبع مرات لا غير، بل "سبعين مرة سبع مرات" (متى 18: 22). وتذهب الكنيسة إلى أبعد من ذلك، فتضم إلى حضنها، بالعماد، أطفالاً لا يطلبون شيئاً؛ وتسامح المنازعين، وقد فقدوا السمع، حتى لا يفقدوا أجر أية عاطفة صالحة يمكن أن تصدر منهم.

فهي عروس المسيح تأخذنا جميعاً في حضنها وتضمنا بين ذراعيها، كأننا نسعدنا بقبول عطفها علينا وحبها لنا.

\*\*\*

غير أن الكنيسة تكرر في الوقت نفسه دعوتها: "من أراد أن يكون لي تلميذاً..." نكرر الدعوة، والتلاميذ يأتون إليها، من كل من تملكهم جمال الملكوت. ولكن من هم التلاميذ؟ ومن يسبر القلوب؟ ليس التلاميذ من يقولون: نحن تلاميذ. فهؤلاء إنما هم فريسيون. فالتلاميذ هم من يتمنون أن يكونوا تلاميذ، ومن يريدون رغبتهم ليسوع، معتمدين عليه، وهم على يقين من قلة جدارتهم. وتكرر الكنيسة تعليمها، بلا انقطاع، على كل من تستطيع أن تتصل بهم. فيذهب البذر الجيد مع الريح؛ فإن وقع على الصخور أو على الرمال، لم يأت بشيء؛ وإن وقع على الأرض الجيدة، نبت وأغل خمسين، وستين ومائة. نعم، هناك القديسون. ولكن الكنيسة لا تعلن حكمها عليهم قبل انقضاء حياتهم. لأن الإنسان معرض للفساد كما هو قادر على الارتداد في كل عمر، فلا تقدر الكنيسة في معركة الحياة إلا أن توجه نداءها، وتوزع نعمة الله أينما وجدت نفساً مستعدة لقبولها.

"يشبه ملكوت السموات شبكة كبيرة ألقيت في البحر فجمعت سمكاً من كل صنف. ولما امتلأت أطلعها الصيادون إلى الشاطئ، ثم جلسوا وجمعوا الجيد في أوعية، وأما الرديء، فرموا به خارجاً. كذلك يكون في منتهى الدهر. يخرج الملائكة، ويفصلون الأشرار من بين الصديقين ويلقونهم في أتون النار هناك يكون البكاء وصريف الأسنان" (متى 13: 47-50).

فلن نبرح حتى ذلك الحين مختلطين في الشبكة. ويسوع يدعونا، فإذا لبينا دعوته قلبياً، فقد لا يحس العالم بشيء، ولكننا نصبح مركز حياة إلهية، وأبونا الذي يرى في الخفية يكافئنا.

## الفصل الحادي عشر

### انتصار المسيح

"ثقوا. إني غلبت العالم". وفي الغداة رفع يسوع على الصليب.

"ليس العبد أعظم من سيده... سوف يطردونكم من المجمع؛ وتأتي ساعة يظن فيها من يميثوكم أنهم يقدمون ذبيحة مقبولة لله. وإنما يفعلون ذلك لأنهم لم يعرفوني ولا عرفوا أبي".  
"إني غلبت العالم... يميثوكم... نيري طيب وحلمي خفيف... إني مرسلكم مثل خراف بين الذئاب..." كل هذا يبدو متناقضاً. لا بدّ له من رابط يسهّل فهمه.

\*\*\*

"لقد أحب الله العالم حتى أنه بذل ابنه الوحيد، لكيلا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية" (يو 3: 16).

فالمقصود الحياة الأبدية، الحياة الأخرى. فيقتضينا نيل الملكوت أن نسير بدافع الحياة الأبدية لا بدافع السعادة الزمنية.

"الحق الحق أقول لكم، إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله الحياة الأبدية؛ ولا يخضع لدينونة، لكنه قد انتقل من الموت إلى الحياة" (يو 5: 24).

عندما يتكلم يسوع عن "الحياة"، لا يقصد بكلامه هذه الحياة، بل الحياة الأخرى. وعندما يبشر تلاميذه بالنصر لا يعني أي نصر أرضي إلا الانتصار على النفس، الانتصار الذي يؤهلهم للتخلي عن كل شيء، ويمكّنهم من الصبر على كل عذاب، من أجل الملكوت. وإن هو إلا ملكوت السموات.

"ليست مملكتي من هذا العالم". إن يسوع لا يطلب نجاحاً في هذه الدنيا، فهو يسعى إلى الإخفاق على الأرض، ويعلم ذلك ويريده، لأنه ينبغي أن تكون مملكته خالصة، ليس فيها شيء أرضي، فتكون كلها من الله، ولا يمكن أحداً أن يرى فيها شيئاً غير مكلوت الله. ولو كان فيها شيء أرضي لتخلّلتها الالتباس. فلا نتظر العدالة ولا السعادة على الأرض، فلن تنتظم الأمور إلا في آخر الأزمتن، حينما "يأتي ابن البشر في مجد أبيه، مع ملائكته، وعندئذ يجازي كل أحد بحسب أعماله" (متى 16: 27).

فإذا راجعنا، بهذه الروح، ما في الإنجيل من النصوص على التخلي ظهر لنا على ضوء جديد.  
"أقول لكم أنتم أصدقائي، لا تخافوا شيئاً من الذين يقتلون الجسد، ولا سبيل لهم بعد أن يفعلوا أكثر؛ بل أبين لكم ممن تخافون، خافوا ممن إذا قتل، له قدوة أن يلقي في جهنم؛ أجل وأقول لكم، من هذا خافوا. أليس خمسة عصافير تباع بفلسين؟ ومع هذا، فلا ينسى واحد منها أمام الله؛ بل شعر رؤوسكم جميعه محصى، فلا تخافوا؛ فأنتم أفضل من عصافير كثيرة. وأقول لكم، إن كل من يعترف بي أمام الناس، يعترف به ابن البشر قدام ملائكة الله؛ ومن ينكرني أمام الناس، يُنكر أمام ملائكة الله" (لوقا 12: 4-9).

هذا النص اختارته الكنيسة ليتلى في أحد قداست الشهداء. ومغزاه واضح.

فليس للحياة أهمية كبرى حتى نخاف ممن لا يستطيعون شيئاً أكثر من أن يحرموننا منها. ولكن هذا يسوء من يؤمنون بالحكمة البشرية القائلة: "الحياة أولاً"، وبما يقوله آخرون: "لن نحيا إلا مرة واحدة". وما يقول المريض: "خير لي أن أحيا معذباً من أن لا أحيا أبداً". وهذا ما يقوله أكثر المسيحيين.

أما يسوع، فالحياة عنده لا قيمة لها في ذاتها. ومن يقولون: "لا نحيا إلا مرة واحدة" أو "خير لنا أن نحيا معذبين من أن لا نحيا أبداً"، فهؤلاء إن كانوا يتكلمون عن انتباه، فهم ينكرون ضمناً الحياة الحقيقية، ويحجدون الإيمان المسيحي.

فالحياة الحقيقية عند يسوع، والتي وحدها تستحق الاهتمام، هي الحياة الأبدية. أما الحياة الحاضرة فهي إعداد للحياة الحقيقية؛ وهي مهمة من هذا القبيل لا غير، لأن الأبدية تتعلق بها. فليست الحياة على الأرض غاية بل هي سبيل، قيمتها فيما تبلغ إليه من السعادة أو الشقاء. ولا مبالغة إن قلنا، قلّ من يعيش من المسيحيين في ترقب هذه الأمور. وإلا فأين المستعدون للاستشهاد إذا بدت بوادر الاضطهاد؟

"أوليس خمسة عصافير تباع بفلسين؟ وواحد منها لا يُنسى أمام الأب. شعور رؤوسكم جميعها محصاة..." هذا لا يعني أن الله يحفظ حياة الدنيا، أو يبقينا فيها طويلاً، ويمتعنا بصحة جيدة، وينجح ما نقوم به من المشاريع، أو يعطينا الشمس والمطر عند احتياجنا إليهما.

فحماية الله لا علاقة لها بهذه الأمور الأرضية. وقد اختارت الكنيسة هذا النص: "أليس خمسة عصافير تباع بفلسين... " نص الثقة المطلقة بعناية الله في قداس الشهداء، لكي تحتفي بتذكار من بذلوا حياتهم من أجل المسيح، وقاسوا الآلام المبرحة، ولم ينقذهم الله - أي لم يصنع شيئاً لينقذ حياتهم على الأرض، أو يخفف آلامهم. على حين أنه يخلصهم؛ ويجعل موتهم نصراً مبيناً.

ليس لنا أن ننتظر من يسوع أي شيء على الأرض، إلا الجلادة والفرح - الفرح الذي لا يوصف - فرح الحياة الداخلية. فنحن هنا لكي نبرهن لله عن متانة خلقنا؛ فالحياة محنة، غاية وجودها ليست فيها. ويسوع لم يعدنا بسعادة أرضية، بل يطلب منا أن نتخلى عن كل شيء، وينذرنا باضطهادات كثيرة. فكلمته لا تتم إلا في العالم الثاني.

وقد أوضح فكره صراحة في مثل الزرع الجيد والزؤان قال: "يشبه ملكوت السموات بإنسان زرع في حقله زرعاً جيداً. وفيما الرجال نائمون، جاء عدوّه وزرع وسط الحنطة زؤاناً ومضى، ولما نما النبات وعقد ثمرًا، حينئذ ظهر الزؤان أيضاً. فجاء عبيد رب البيت وقالوا له، يا سيد، أولم تزرع في حقلك زرعاً جيداً؟ فمن أين أتى الزؤان. فقال لهم، إن إنساناً عدوّاً فعل هذا؛ فقال له العبيد، أتريد أن نذهب ونجمعه؟ فقال: لا، لئلا تقلعوا الحنطة مع الزؤان عندما تجمعونه. دعوها ينبتان كلاهما معاً، حتى الحصاد، وفي أوان الحصاد أقول للحصادين، اجمعوا أولاً الزؤان، واربطوه حزمًا ليحرق، أما الحنطة فاجمعوها إلى أهراي" (متى 13: 24-30).

فسأل التلاميذ يسوع أن يفسّر لهم مثل زؤان الحقل فأجاب قائلاً: "الذي يزرع الزرع الجيد هو ابن البشر، والحقل هو العالم؛ والزرع الجيد بنو الملكوت، والزؤان بنو الشرير؛ والعدو الذي زرعه هو الشيطان؛ والحصاد منتهى الدهر؛ والحصادون هم الملائكة: فكما أن الزؤان يجمع ويحرق بالنار، كذلك يكون في منتهى الدهر، يرسل ابن البشر ملائكته فيجمعون من مملكته كل المعثر وفاعلي الإثم، ويلقونهم في أتون النار. هناك يكون البكاء وصريف الأسنان. عندئذ يضيء الصديقون كالشمس في ملكوت أبيهم. من له أذنان فليسمع" (متى 13: 37-43).

إن فكرة يسوع واضحة كل الوضوح: فهو لم يأت ليبطل الظلم على الأرض؛ فالزؤان لن يبرح ينمو وسط الزرع الجيد. وما جاء ليقوم بعمل ينجح نجاحاً بشرياً؛ ولا جاء يمنع الحروب،

والرق واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان. إنما جاء يدعو إلى الملكوت من يريدون أن يستمعوا له. والملكوت ليس من هذا العالم.

\*\*\*

"يا أبتاه، لقد أتت الساعة، فمجد ابنك... فلقد قلّدتَه السلطان على كل بشر..." (يو 17: 1-2). قال يسوع هذه الكلمات، عشية الألام، فالتمجيد سيبدأ بالإذلال، والنكال، والموت. إذلال، ونكال، وموت: أحوال ثلاث هي في نظرنا منتهى الشر، ينبغي تجنبها بكل الوسائل. فيقضي الإنسان عمره، محاولاً اتقاءها، أما يسوع، فلا يتقها، بل يتخيرها: وظل طوال حياته العامة ينبئ عن آلامه العتيدة؛ وفي الإنجيل أكثر من عشرين نصاً تدكّر بها. فهو يواجه العذاب والموت بنفس الاطمئنان التام الذي يواجه به أحداث الكون: "أنا الراعي الصالح؛ أعرف خرافي، وهي تعرفني كما أن الآب يعرفني، وأنا أعرف الآب؛ وأبذل حياتي عن خرافي... لا ينتزعها (حياتي) أحد مني، وإنما أنا أبذلها باختيار. فلي سلطان أن أبذلها، ولي سلطان أن أسترجعها أيضاً" (يوحنا 10: 14، 15، 18).

يسوع يبذل حياته وله سلطان أن يسترجعها. يسترجعها؛ بأن يقوم، فهو حين ينبئ عن آلامه ينبئ عن قيامته: "وعاد فاعتزل بالاثني عشر، وطفق يقول لهم ما سيجري له، ها نحن صاعدون إلى أورشليم، وابن البشر سيسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة، فيحكمون عليه بالموت، ويدفعونه إلى الأمم، فيمزقون به، ويصبقون عليه، ويجلدونه، ويقتلونه، ثم ينهض بعد ثلاثة أيام" (مرقس 10: 33-34).

"أما الرسل، فلم يفهموا هذا الكلام، وكانوا يهابون أن يسألوه" (مرقس، 9، 31).  
لم نفهم بعد.

\*\*\*

قام يسوع من الموت وانتصر. وغلب الموت والخطيئة. ولكنه لم يقم لينتقم، في هذا العالم، ممن زعموا دماره. وملك، ولكن في العالم الحر الآخر، أما في هذا العالم فقد انتهت رسالته بهزيمة الصليب.

ومرّ ألفا سنة، ولما نفهم سرّ الصليب، ولم نزل مصريّين، نريد أن يعلن مجد القيامة بانتصار أرضي.

غير أننا، عندما يخطر ذلك بالبال، نشعر بأن يسوع يعارض هذه الشهوات الأرضية كل المعارضة، ويريد من تلاميذه تخلياً قاطعاً، لكي يثبت للملأ أجمع أن مملكته مملكة سماوية... ولكن، كم من المسيحيين يزعمون أن الحياة الحقيقية هي الحياة الأخرى، وتقتضيهم فكرة الانتصار على هذه الأرض أن يعيشوا عيشة اتضاع واحتمال حتى يكلّلوا في الآخرة فقط بمجد القديسين؟

\*\*\*

ومع ذلك، فإن يسوع يشير إلى واقع دنيوي، عندما يتكلم عن الملكوت، فيشبهه بحبة خردل، وبخميرة، ودرّة ثمينة، ولا يقصد بذلك الحياة الأخرى؛ وهكذا قوله: "ليس ملكوت السموات هنا أو هناك، إنما هو في داخلكم". فالملكوت موجود، بنوع ما، على الأرض في نفوسنا، وفي جماعة النفوس التي تتبع يسوع وتكون الكنيسة غير المنظورة. فهذه النفوس أشبه بمخطط للحياة الأبدية.

ولا رب أن الحياة الإلهية هي عند من فهمها وذاقها، حتى في هذا العالم، فوق كل سعادة بشرية؛ ولكنها لا تعدو أن تكون زرعاً، يقوم جمالها في تصوّر ما تتفتح عنه يوماً من المجد؛ كجمال البرعم الذي ننتظر أن يصبح زهرة.

"الآن ننظر في مرآة، في إبهام؛ أما حينئذ، فوجهاً إلى وجه" (1 كو 13: 12).

ثم إن سعادة هذه الحياة الإلهية، على الأرض، هي ثابتة. فقد يمر تلميذ المسيح بمحن داخلية وخارجية. وتمرّ به ساعات لا يسنده فيها سوى إيمانه، وقد تدوم تلك الساعات أسابيع وسنين. أما إذا فهم تعليم الرب وحفظ دروس الصليب، فلا يهيمه من ذلك شيء فانتصار المسيح هو الانتصار على الخطيئة، وملكوت الله هو ملكوت السموات.

ويختلف ملكوت الله، كل الاختلاف، عن ممالك هذا العالم. وأول التجارب وأغلظها التي يقع فيها أكثر البشر هي أن يحسبوا الملكوت، برغم تحذير العلم، مملكة أرضية مادية، مملكة برّ



وقداسة منظورة، وأن يطالبوا الكنيسة بأن تثبت رسالتها الإلهية بضمائها السعادة للناس، بالعدل والسلام على الأرض.

هذا التصور الكثير الشيعوع يناقض تعليم الرب الصريح كل المناقضة. ومن نجا منه، سقط في تجربة أخرى أدق من الأولى؛ وهي أن تتصور الملكوت مملكة نفوس (قديسة) لا تزال في الدنيا، وتحكم على المسيحية مما تقدمه لها من السعادة على الأرض، وأنت تريد السعادة الروحية الداخلية لا الخارجية المادية، ولكن السعادة الداخلية على الأرض هي سعادة بشرية. فتكون إلهية إن جاءت من الله، ولكنها لا تزال أرضية لأنك تنعم بها على الأرض.

فهذا الضلال الثاني لا يناقض تعليم الرب مباشرة كالضلال الأول. لأنه معروف أن الحياة المسيحية تولى النفس فرحاً لا يوصف، منذ هذه الحياة. فرسائل القديس بولس تفيض بهذا الفرح، ولكن باتجاهه نحو الحياة الأبدية؛ فالحياة المسيحية على الأرض لا يمكن اتخاذها كلاً بذاتها؛ وما هي إلا بداءة، واستعداد، وانتظار؛ لكن الإنسان، بانغماسه الشديد في الأرض، يجعل الحياة الإلهية خيراً أرضياً.

لذلك، تكون المحن الداخلية ألزم من الخارجية لمن يريد أن يفهم معنى الملكوت.

\*\*\*

أوجب على المسيحي، بعد هذا، ألا يبالي بالعالم؟ وماذا يبقى لنا أن نصنع في العالم، إذا لم يبقى لنا أن ننتظر على الأرض لا العدالة ولا السعادة؟ أنترك العالم يسير على البوار والدمار، ونعتزل الناس لكي نطهر نفسنا؟

سؤال يلقي دائماً، وقد أجبنا عنه قبلاً، - ماذا بقي لنا أن نصنع في العالم؟ - أن نمارس المحبة. ما جاء يسوع ليقوم العدل على الأرض، ولا دُعي تلميذه ليطالب العدل والسعادة لنفسه، بل ليحتمل الأذى، بلا شكوى ولتحمله المحبة على أن يطلب لغيره ما لا يطلبه لنفسه، فيكون موقفه غير موقف الكثيرين، ممن لا يذكرون العدل إلا إذا زعموا أنهم مظلومون. ويطلبون السعادة لأنفسهم، دون اهتمام بالآخرين.

أما يسوع، فقد اختار الموت في العذاب عمداً؛ ولكنه شفى المرضى والزمنى.

"طوبى للجياع والعطاش إلى البر" (متى 5: 6) فليس المقصود فقط أن نطلب حقوقها ونستريح بها، بل المقصود العدل للجميع. والجميع هم الآخرون. فتلميذ المسيح في العالم منهل عدالة، وسعادة، وسلام. إن يسوع ما جاء إلى العالم ليلاشي الحروب، ويحلّ المشاكل الاجتماعية؛ ولكن تقلّ الحروب، وتهدأ المشاكل، كلما ازداد عدد التلاميذ. وهكذا تكون الكنيسة مقدسة. يضيء نور قداسها على الجبل، ويطرده الظلام. ولكن لا يتم ذلك إلا مع المقاومة، لأن ما أتانا به يسوع في بشارته السنوية ليس سلاماً أرضياً؛ وقد رأينا أن هذا السلام لا يتحقق بجملته، لأن التلاميذ هم دائماً قليلون ومضطهدون، ولكنهم يكونون دائماً خمير سعادة روحية وسعادة بشرية. إن المسيحي الحقيقي ليظهر الجو تلقائياً، بقوة ما ينال من النعم الإلهية الغزيرة، وبدون أن يفكر فيها أو يعلم بها. وكثيراً ما تكون هذه القوة العلامة التي يعرف بها المخلص كثير من غير المؤمنين.

\*\*\*

إن تركيز الحياة في العالم الثاني أمر تقاومه، في طبيعتنا البشرية، نزعة قوية، لأن الإنسان جسدي حسي يرى، في هذا العالم الذي يعرفه ويحيا فيه، العالم الحقيقي؛ أما الحياة الأبدية فهي عنده شيء غائم غامض. هكذا، كان اليهود يركزون حياتهم في هذا العالم، ولم يكن للعالم الآخر في تفكيرهم إلا موضع ضئيل. فلم يتبع يسوع تقليدهم، وبشّرهم بملكوت السموات؛ فكان تعليمه يسوءهم. ولست أعرف ديانة أخرى غير المسيحية جرؤت، وركزت قيمة الحياة كلها في العالم الآخر. لأن ما من ديانة فيها الوعي الحي لله الذي جاء به يسوع، والذي وحده يقدر أن يأتي به، لأنه الابن؛ وما من ديانة تثبت لمؤسسها هذا الوعي للحقيقة الإلهية، أو تتوهم كم يحبنا الله، وكيف يريد أن يشركنا في حياته. لكن المسيحية تكلفنا، مقابل تجاوزنا طبيعتنا، أن نبذل جهداً لا تطلبه ديانة أخرى. وقلّ بين المسيحيين من يبذلون هذا الجهد.

فعلى حياتنا الداخلية يتوقف وعينا للملكوت. ولا يكفي أن نسلّم بالعميقة، أو أن نتعلم في درس ديني أن الرؤيا السعيدة تفوق كل سعادة دنيوية، بل ينبغي، لتحقيق الحياة الفوقية أن نبدأ فنحياها ونهجس فيها، كل حين.

ولن نبلغ إلى ذلك بسهولة، لن نبلغ إلا إذا أتمنا ما يطلبه يسوع من تلاميذه، من التخلي. فالتخلي والحياة الفوقية أمران متلازمان. فنحن إذا فتننا الأرض بما فيها، كانت الحياة الأرضية حياتنا الحقيقية؛ وإن لم نعش مفكرين في الملكوت، حيث يملك المسيح ممجداً، وحيث يعد لنا مقاماً، فكيف نزهد في الخيرات الحسية؟

\*\*\*

"إن يوم الرب يوافي كلص في ليل" (1 تسالو 5: 2).

"كونوا مستعدين، لأن ابن البشر يأتي في ساعة لا تظنوها" (متى 24: 44).

"احذروا؛ اسهروا وصلوا، لأنكم لا تعلمون متى يحين الوقت. فمثل ذلك مثل إنسان سافر، وترك بيته... وأوصى البواب بالسهير. فاسهروا إذن، لأنكم لا تعلمون متى يجيء رب البيت، في المساء أم في منتصف الليل، أم عند صياح الديك، أم في الصباح... وما أقوله لكم أقوله للجميع، اسهروا" (مرقس 13: 32-37).

فالحياة محنة، وللمعلم وحده أن يحدد مداها. وليس المهم أن تكون الحياة طويلة أو قصيرة؛ إنما المهم أن نكون، عند مجيء الرب، مستعدين. فالناس يموتون في جميع الأعمار. وليس بوسعنا أن نتجنب الموت، بل بوسعنا أن نكون مستعدين. وليست المشكلة في عدم الموت، بل في أن نموت ميتة صالحة. فالميتة الصالحة تتوقف على الحياة، لأننا نموت كما نحيا.

إننا نموت في كل عمر، ويوافقنا الموت كلص في ليل؛ وليس لنا أن نضرب له موعداً. فقد يفاجئ طفلاً ملء العين، ويختطف عرساً غداً زواجهم، وشباناً في أوج مجدهم، على حين يعيش مجانين، ثمانين ومائة من السنين. فليس يهمننا أن نموت أجلاً أم عاجلاً. فللمعلم أن يعين ساعة مجيئه، إنما يهمننا أن نكون مستعدين.

جميل أن يموت الإنسان كريماً في العشرين؛ وقبيح أن يبلغ الثمانين، وهو لا أدب ولا دين. فالحياة تؤدي إلى الأبدية، وهذه لا تتوقف على عدد السنين، بل على نوع الحياة. فالتلميذ ينتظر معلمه، متاجراً بوزنته، وعينه ترقب الأبدية، ملكوت السموات، ملكوت الله الأزلي؛ - وهذا الملكوت هو في التلميذ بواسطة الحياة الفوقية. لأن الحياة المسيحية هي بداية الأبدية في النفس على الأرض، تظهر بأعمال المحبة، ولا تنتهي بالموت، بل تتمدد وتتفتح. "صورة هذا الزمان تزول" (1 كور 7: 31) أما حياتنا فلا تزول.

وهذا أيضاً، قد قلّ بيننا من يحققه، لما في غريزتنا من التعلق الشديد بالحياة، وقليلون بين البشر حتى بين المسيحيين من يتسلطون على غرائزهم، فالخوف من الموت أمر طبيعي؛ أما انتظار المعلم فأمر فوق الطبيعة. ولذلك يقل بيننا من ينتظرون المعلم. فتلاميذ يسوع قليلون في هذا الأمر كما هم في غيره.

إن حياة المسيحي هي حياة داخلية. فنحن ننتظر، في سر نفسنا، مجيء ربنا؛ ولسنا لنتظره إلا لأننا نفتكر فيه: فالخادم الذي يكنس عتبة البيت المهجور، كل صباح، لا يواصل كنسها إلا لافتكاره في سيده كل صباح، "فقد يمكن أن يجيء المعلم في هذا النهار". يجب الافتكار فيه.

## خاتمة

لقد مرت أجيال وأجيال على مجيء المسيح إلى العالم، وكتبت عنه وعن تعلمه ألوف من المجلدات. لكن لا يزال من يقبلون تعليمه قليلين.

وتحمل الكنيسة تعليمه إلى أقاصي الأرض، ويظل البشر كما جاء في مثل الزارع: يسقط كثير من الحب على أرض حجرة فينبت، وإذا لا يكون له تراب كثير، فييبس.

وهم، دائماً، كمثّل الزارع الجيد والزؤان؛ يكتبون ألوفاً من الكتب عن يسوع، ولكن أكثرها يشوّه صورته: فيتبعه الناس كما كانت الجماهير تتبعه قديماً ليشاهدوا أعجوبة، أو ليناولوا مأرباً. يتجارون به كما صنع أحدهم وقد تجاسر فنشر سلسلة من القصص التافهة الزرية بعنوان (المسيح في الدكان). فيصير الدين تجارة لربح المال، وسياسة لإنتصار الأحزاب. حتى لتبلغ الحال بكثيؤ من المخلصين ألا يروا المسيح ولا يعرفوا تعليمه في من يدعون أنهم تلاميذه. وهم اليوم كما كانوا من قبل في وليمة الفريسي وفي جميع الأمثال الإنجيلية.

نظن أحياناً أن الكنيسة قد حددت كل ما يجب أن نؤمن به، وما يجب أن نعمله، بحيث لا تبقى أية مشكلة يمكن أن تواجه المسيحي الصحيح. ولكن الغرض من تعليم الكنيسة أن تمسعنا نداء يسوع الذي يدعونا شخصياً، فرداً فرداً. ومشكلة حياتنا هي أن نعرف كيف يجب ان نكون مع يسوع.

وإذا كان تعليم الكنيسة يقدم لنا من الاطمئنان إلى العقيدة ما لم يكن يقدمه، بهذا المقدار، للمسيحيين الأولين، فإن التربية التقليدية في بعض البيئات المسيحية قد تعرّض النفوس إلى طمأنينة كاذبة؛ فيظنون أنهم يقدرّون أن يتكلموا على بعض الرسوم والالتزامات، وبعض العبادات، فينسوا أن المسيحي هو تلميذ الرب يتبعه، ويحبه، ويثق به ثقة لا حد لها، وأن مسيحيّتنا إنما تقوم بهذا الارتباط الشخصي بالمسيح يسوع.

هذه الأفكار المسيحية الأساسية أي التعلق الشخصي بالمعلم، والانطراح بين يديه، والأهمية العظمى لملكوت السموات، والحب الفائق للآب، هي، ولا شك، أقل ما يعرفه أكثر المسيحيين. أما الذين يعرفون هذه الأمور، ويقدرّون ما تستحق من المكانة في حياتنا، فإنهم يفهمون سريعاً أنها تقتضي منا رجوعاً عميقاً إلى ذاتنا، فنجعلها شغلنا الدائم، دون أن نبلغ أبداً إلى منتهائها.

إن طريق الملكوت قد يكون مزروعاً بعلامات واضحة؛ ولكن علينا نحن أن نسير فيه، مراقبين المعلم قائدنا فيه، فنقتفي أثره، ونصحبه، ونستمع إلى صوته، ونعتمد عليه، وندعه ينفذ إلى صميم كياننا، حتى يتلاشى إنساننا القديم، شيئاً فشيئاً، وتمحى شخصيتنا اللحمية الشهوانية ولا يبقى فيها إلا هو.

\*\*\*

وهذا الكتاب، يحب أن يقال عنه في ختامه ما قال القديس يوحنا في ختام إنجيله: "وصنع يسوع أيضاً أشياء أخرى كثيرة؛ فلو أنها كتبت واحداً فواحداً، لما خلت العالم نفسه يسع الصحف المكتوبة".

والأنجيل ليست سوى كتيبات. وهذا الكتاب لا يقدم للقارئ غير جزء يسير مما تحتوي عليه الأنجيل؛ فقد حاول أن يستخلص منها بعض أسطر مهمة لفائدة أهل العصر ولتجديد الروح عند من يُخشى عليهم، من التقليد، أن يخنق الحياة الإلهية فيهم.

الحياة هي حياة يسوع. ولن نكون مسيحيين ما لم نفهم أن إيماننا المسيحي هو حياة، ومعاشرة إنسان لإنسان، معاشرة الإنسان الخليقة الضئيلة للإنسان الإله، فإن بيننا وبينه عهداً.